جامعة مولود معمري–تيزي وزو

مخبر الممارسات اللغوية



قراءة لكتاب "الهلوسة في اللّغة والأدب"

لـ"عمر بورنان"

كلمة الافتتاح

أ. مودر الجوهر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدِنا محمدٍ الأمين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين.

السلام عليكم جميعا ورحمة الله تعالى وبركاته؛ ثم بعد؛

باسمي وباسم أعضاء مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، نرحب بالأساتذة الأفاضل، الذين شرفونا بحضورهم، كما نرحب بطلبَتنا الأعزاء، الذين لم تُشغلهم الامتحانات التي على الأبواب عن حضور هذا اللقاء العلمي، الذي نظمه "**مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر**"في هذا الإثنين المبارك العاشر من شهر ماي من عام ألفين وعشرة. فمرحبا بالجميع.

بداية، نتوجه نحن أعضاء المخبر بالشكر لأستاذنا الدكتور **بلعيد صالح** الذي ندين له بالفضل - بعد الله عز وجل- ، في حصولنا على مخبر الممارسات اللغوية؛ كما نشكر كل الأعضاء الفاعلين فيه. كذلك نشكر السيد رئيس القسم الدكتور **شتوان بوجمعة** الذي وفر لنا أسباب هذا اللقاء، وذلك بتخصيص القاعة لمثل هذه النشاطات التي تساهم في تفعيل النشاط العلمي في قسم الأدب العربي.

وقبل ما نتطرق إلى موضوع كتاب الهلوسة في اللغة والأدب، نعرفكم أولا بالمخبر (أهدافه وأهم منجزاته ومشاريعه).

تم اعتماد مخر "الممارسات اللغوية في المجتمع الجزائري"، من لدن وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، في 13 جويلية 2009 بمقتضى قوانين إنشاء مخابر بحث في مؤسّسات التعليم العالي. بعد استيفاءه للشروط. **والمخبر هو حلقة علمية تضم مجموعة** من أساتذة باحثين من مختلف جامعات الوطن من جامعة تيزي وزو ومن جامعة الجزائر وجامعة البويرة وقسنطينة وسكيكدة وبجاية. يتوزعون على **أربع وحدات بحثية:**

- وحدة الاستعمال اللغوي العربي المعاصر في المجتمع الجزائري –
- وحدة الممارسات اللغوية في المجتمع الجزائري –
- وحدة أثر وسائل الإعلام في الممارسات اللغوية في المجتمع الجزائري
- ووحدة ترجمة الروائع الأمازيغية إلى اللغة العربية.

وهذه الوحدات (مثلما توحي إليه عناوينها) يجمعها خط مشترك هو البحث في الاستعمال **الحقيقي للغة العربية في الجزائر**.

هدف المخبر الأساسي هو السعي إلى وضع **خريطة جغرافية لغوية للجزائر**، وهو ما يعرف **بالأطالس اللغوية.**

كما يسعى لتوطيد العمل مع الشبكة الوطنية للبحوث في اللغة العربية، وربط علاقات علمية مع المؤسسات البحثية داخل الوطن كالمساهمة في إنجاز الذخيرة اللغوية العلمية، كذلك مع مؤسسات بحثية خارج الوطن، مثل: المجامع اللغوية على مستوى الدول العربية، ومكتب تنسيق التعريب بالرباط الخ...

أما بالنسبة لإنجازاته، فقد قام بعد ستة أشهر من تنصيبه بـ:

1- إقامة ورش عمل مغلقة منذ تأسيس وحدات البحوث المنضوية تحت المخبر.

2- إصدار العدد الأول من المجلة التي تحمل اسم المخبر، وهي مجلة نصف سنوية، تهتم بالدراسات التي تتناول القضايا المتعلقة بواقع اللغة العربية، بحثا وممارسة. وتضم أبحاثا نظرية وتطبيقية تخص علوم اللغة.

3- طبع ثلاثة أعمال لأعضاء المخبر.

المشاريع المستقبلية:

1- تنظيم ملتقى وطني قبل نهاية السنة 2010.

2- إقامة أيام دراسية فصلية، هدفها خلق جو للمناقشة العلمية وطرح الآراء بغية دعم العمل البحثي وتحسينه وإثرائه، فالبحوث الأكثر نجاعة هي التي تقام في إطار فرق بحث.

3- كما يسعى المخبر للتعاون جنبا إلى جنب مع شقيقه مخبر تحليل الخطاب، أملا في جعل قسم الأدب العربي بجامعة مولود معمري منارة للغة والأدب، وأن يحقق دوراً رياديا في ترسيخ العلاقات بين جامعة تيزي وزو ومختلف الجامعات الوطنية والدولية للتغلب على كل التحديات خدمة للمجتمع وللبحث العلمي. ونرجو من الله التوفيق ومن المسؤولين الدعم المتواصل، ومنا- نحن الباحثين- العمل الدؤوب.

وعَوْداً على بدْءٍ؛ يندرج هذا اليوم الدراسي في سياق النشاطات العلمية للمخبر، نقدم فيه دراسة لكتاب "الهلوسة في اللغة والأدب" أول عمل إبداعي صدر عن المخبر، وهو من تأليف **الأستاذ عمر برنان**

وهو كتاب متوسطُ الحجم، غلافه يمثل لوحةً فنيةً، يقع في مئةٍ وستٍ وعشرين صفحةً، ويتوزع على سبعةٍ وعشرين موضوعًا في اللغة والأدب، يسبق هذه الموضوعاتِ إهداءٌ ومقدمةٌ مع بيان سببِ وظروفِ تأليف هذا الكتاب، ويليها خاتمةٌ وفهرسان، أحدهما للمصادر والمراجع، ثانيهما للموضوعات.

وقد شملت دراسة الأساتذة مختلف جوانب الكتاب، شكله، وعنوانه، وموضوعاته، وهي:

....أ .فلاح حسينة

.........أ حداد فتيحة

...... .أ .مكلي شامة

المقدمة:

يأتي طبع مجريات اليوم الدّراسي الذي انعقد في العاشر (10) من شهر مايو للسنة العاشرة بعد الألفين (2010) استجابة للإلحاح والطلب من قبل الأساتذة والطلبة الذين حضروا اليوم الدراسي لقراءة تلك النقود والإطراءات التي قدمت في كتاب :

- الهلوسة في اللّغة والأدب-

ومن هنا عمل مخبر ((الممارسات اللّغوية في الجزائر)) على طبع كل الفعاليات التي يقيمها ، ونشرها على نطاق واسع.

ونروم من خلال هذا المنشور أن يطلع المتخصص والطالب على النشاط العلمي الذي سنّه مخبر (الممارسات اللغوية في الجزائر) ويعمل بتؤدة مضمونة على تحقيق أفضل التواصل العلمي من أجل تحقيق (البقاء للأصلح).

وتحقيقا لهذا ، نرجو من كل المتابعين والمهتمين بفعاليات مخبرنا أن يعضدونا في نشاطاتنا وفي ماننتجه من أعمال بتوجيهات ونقود تعمل على حسن أداء المخبر.

ونسعى دائما أن نكون في الصدارة؛ تحقيقا لرسالة اللغة العربية التي تنتظر منا الفعل التثويري التنويري؛ وذلك مبتغانا وأملنا وبرنامجنا.

لكم منا العمل، وعليكم تقديم الأمل.

مدير المخبر

أ.د.صالح بلعيد

أ/ حســينة فــلاح
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة تيزي وزو- مولود معمري

مقدمة: بسم الله الرحمن الرحيم، وصل اللّهم على نبيك محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. والحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، وبعد:

الحمد لله الذي فطر العرب على اللّغة العربية الفصحى، والحمد لله الذي اختار لغتهم لغة للقرآن الكريم والبيان، والحمد لله الذي ألهم الإنسان حب القرآن وحب لغته.

ولعل افتخار العرب بكون لغتهم المختارة لأداء هذه الرسالة النبيلة جعلهم يتعقلون أكثر بأهمية هذه اللغة؛ إذ نلقاهم يؤلفون الكتب والدراسات ويفاخرون بها جيرانهم من الأعاجم والأمم الأخرى. ومن أشهر المعاجم والكتب التي ألفت آنذاك، نذكر: "معجم العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي، "الكتاب" لسيبويه، "البيان والتبيين للجاحظ"، "الخصائص" لابن جني، "الكامل" للمبرد.. إلى غير ذلك من الكتب والمعاجم.

ولأنّ الحب والاعتزاز باللغة العربية لا يزال إرثا متوارثا عبر العصور، وهو ما لاحظناه لدى أجيال هذا العصر، فإن ثمة كتبا كثيرة مؤلفة على نهج لغة القدماء، وهي لغة رصينة، سلسة وموحية. ونحن إذ نتحدث عن هذه النماذج نذكر كتاب بعنوان "الهلوسة في اللغة والأدب" الذي ألفه عمر بورنان.

إن القارئ لكتاب "الهلوسة في اللغة والأدب" قد ينسى أنه أمام مؤلف كتب في سنة 2010، ذلك أن لغته السليمة تطير به إلى عصر الجاحظ، وهو الأمر الذي يظهر تأثر المؤلف حديثا ومؤخرا بالتراث العربي القديم من خلال

أسلوبه والمفردات التي يستعملها، وهذا راجع لحفظه للقرآن الكريم في سن مبكرة، مما ساعده في صقل لغته وموهبته، وفضلا عن اطلاعه على كتب القدماء مثل الجاحظ، سيبويه، ابن جني، ابن الجوزي، ابن قتيبة، التوحيدي وغيرهم.

وللإجابة عن كل الإشكالات التي أثارتها عنوان كتاب "الهلوسة" ومتنه، أردنا أن تكون لنا قراءة للكتاب، وذلك وفق المنهجية الآتية:

1- دراسة وصفية تحليلية لكتاب الهلوسة في اللغة والأدب: الهلوسة في اللغة والأدب، عنوان لكتاب من تأليف عمر بورنان، كتاب من الحجم المتوسط - 15.5/22.5- ، غلاف الكتاب بني اللون رسم فوقها عين إنسان - مفتوحة- محشوة في لهيب من النار، وكتب في وسط الغلاف عنوان "الكتاب الهلوسة في اللغة والأدب" وفي أعلاه اسم الجامعة: "جامعة مولود معمري تيزي وزو" واسم المخبر الذي ينتمي إليه المؤلف وهو: "مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر".

كما كتب اسم المؤلف "عمر بورنان" على الجهة اليسرى من غلاف الكتاب، أما خلفية فقد أعيدت عليها كتابة اسم الجامعة واسم المخبر، مع ذكر رقم الإيداع القانوني للكتاب: 5901- 2010 ردمك: 1- 1782- 0- 7499- 879

وفيما يتعلق بالصفحة الثانية للكتاب، فقد كتب في الجزء المخصص لمكان النشر، في الصفحة الثانية كتب مكان النشر- "منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر"، ورقم الإيداع القانوني، وتليها الصفحة الثالثة التي كتب فيها الإهداء، وهو أوّل ما يفتتح به المؤلف كتابه، وهو إهداء رامز وموح لما سيأتي في كتابه: إلى الذين تكلموا فأفهموا، وصمتوا فعبروا، فأراحوا الناس واستراحوا منهم...

وبعدها تلي صفحات متن الكتاب، والتي يبتدئها بمقدمة شافية وافية للموضوع، يذكر فيها دوافع تأليف الكتاب والهدف منه.

وفي الصفحة بعد الإهداء يبتدئ متن المؤلف بمقدمة شافية وافية للموضوع، يشرح فيها الكاتب سبب تأليف هذا الكتاب وهدفه من تأليف هذا الكتاب. والكتاب مقسم إلى 27 عنوان فرعي على طريقة كتب الجاحظ.

مميزات كتاب الهلوسة: يحتوي الكتاب على حوالي 126 صفحة وفيه صفحة الإهداء التي اختتم بها الكتاب، ومع أنه لم يفصح المؤلف عن ذلك كإهداء، جاء بعنوان "إلى المجانين في كل مكان". بالإضافة إلى الصفحات الخاصة بقائمة المصادر والمراجع المعتمدة، وبفهرس الموضوعات.

كتب الكتاب بخط Simplified Arabic14.

2- دراسة سيميائية للكتاب:

تفكيك العنوان: " الهلوسة في اللغة والأدب"

يندرج العنوان ضمن المتعاليات النصّية، إذ يسم النص ويسميه بل يشرق عليه كأنّه ثريا[1]، فيما النص ذاته يسهم بدوره في خلق مرايا متعددة للعنوان، بحيث يتلاقى عنده العديد من أنماط القول: إنه صوت حواري[2] بين العنوان والنّص من جهة وبين القارئ والنص من جهة أخرى.

المعنى المعجمي: "وردت في المعجم الوسيط مادة- هلسه- الداء أو الحزن- هلسا وهلاسا: هزله وضمره. وذهب برشده فأخذ يهذي.

- هلس- هلاسا: سلّ. وأكل ول يرى أثر الأكل في جسمه. و- سلب عقله. فهو مهلوس.

- اهتلس- المرض فلانا. فهو مهتلس. ويقال اهتلس عقل فلان: ذهب.

1- Jacques DERRIDA, La dissémination, ed. Seuil, Paris, 1972, p 20.1

- نقلا عن: أحمد فرشوخ، **جمالية النص الروائي، مقاربة تحليلية لرواية " لعبة النسيان"**، د. ط، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ص 22.

2-LEO HOEK, La marque du titre, ed. Mouton, 1973, p 184.

نقلا عن: أحمد فرشوخ، **المرجع السابق**، ص 22.

- الهلس- الهلاس. و- الدقة والضمور في الجسم. و- الهذيان من شدة المرض أو الحزن"[1].

– "هَوسَتِ- الناقة هوساً: اشتدت ضَبَعَتُها- فهي هَوِسة- والقوم: وقعوا في اختلاط وفساد. و- الرجل: أصابه الهوس.

- هوَّس- الشيء: دقَّه. و- الله فلانا: جعله ذا هوس.

- تهوس – فلان: مشى ثقيلا في أرض لينة.

- الهوس- : طرف من الجنون

- الهواس- : صيغة مبالغة.و- من الرجال: الشجاع المجرب. والأسد الهصور.

- الهواسة- : الهواس.

- الهويس- : ما تخفيه في صدرك. و- متفرقة أخذت من هنا وهنا"[2].

نفهم أو ندرك من خلال ما سبق أن الهوس نوع من أنواع الهذيان، فقد ورد في مادة – هذرم – في المعجم الوسيط أن- الهذيان- اضطراب عقلي مؤقت يتميز باختلاط أحوال الوعي[3]، أو ربما هما معا.

المعنى الاصطلاحي: يقال عن الهوس أو نوبة الهوس على أنه "حالة مبالغة في المشاعر مشابهة لما يحصل في الأشخاص العاديين من وقت لآخر ولكن بدرجة شديدة جدا. وهي حالة معاكسة للكآبة، حيث يشعر الشخص بأنه يتمتع بطاقة عالية وتفاؤل أكثر من الطبيعي والشعور بالصحة الممتازة، فهل تعتبر هذه الأعراض مشكلة؟!

---

1 –**المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية، ج2، ط3، 1985، ص1031.

2 – **المعجم الوسيط**، ص 1040.

3 – **المرجع نفسه**، ص 1019.

نعم من الممكن أن تكون هذه الأعراض شديدة لدرجة فقدان الاتصال بالواقع. حيث يفكر الشخص بأفكار غريبة، يفقد القدرة على الحكم المنطقي، يتصرف بطريقة مخجلة ومؤذية وفي بعض الأحيان يقوم بتصرفات خطرة، وبشكل مشابه للاكتئاب.

ومن أعراض الهوس: يمكن أن يحدث للمُهلوِس على مستوى عدة، منها:

العاطفة:

- الشعور بسعادة غامرة وإثارة دائمة.
- الشعور بالعصبية اتجاه الأشخاص الذين لا يوافقونك في الرأي.
- الشعور بأهميتك بشكل أكثر من الحد الطبيعي.

التفكير:

- مليء بأفكار جديدة ومثيرة.
- التفكير بعدة أفكار في وقت واحد والتنقل من واحدة إلى أخرى.
- سماع أصوات لا يسمعها الآخرون.

الأعراض البدنية:

- الشعور بالطاقة الفائقة.
- عدم القدرة أو عدم الحاجة إلى النوم.
- زيادة الرغبة الجنسية.

السلوك:

- القيام بالتخطيط لأشياء تفوق قدرة الشخص وغير واقعية.
- نشط جدا ودائم الحركة.
- التحدث بسرعة لدرجة أن الناس أحيانا لا يفهمون الكلام.
- اتخاذ قرارات اعتباطية سريعة قد تؤدي إلى عواقب وخيمة.
- صرف الأموال بطريقة طائشة.
- التعامل مع الغرباء بطريقة غير لائقة والتعليق عليهم بصورة غير لائقة.

- سلوك غير منضبط بصورة عامة.[1]

تفكيك صورة الغلاف: أولت الدراسات الحديثة أهمية كبيرة للصورة/ اللوحة الفنية التي توضع فوق غلاف الكتاب، خاصة إذا كان الصورة أو الرسم التوضيحي أو الإيحائي من اختيار المؤلف لا من اختيار دار النشر. وعلى هذا، فإنّ صورة الغلاف عامة تشكل علامة مكثّفة ومراكمة لعنوان ولمتن الكتاب، فهي لغة ثانية أو بالأحرى لغة واصفة وملخصة لمضمون النّص ككل.

تحيل بيانات الغلاف إلى جملة من الوحدات التي تعمل على محاورة " أفق انتظار القارئ وإثارة اشتهائه السردي، بل وتصيّده بالمعنى البارثي للكلمة[2]، فمقاربة صورة الغلاف بإجراءات سيميائية تُتيح لنا إمكانية تأويل الصورة انطلاقا من بياناتها الذاتية، وكذا من خلال تأويلات النص والعنوان.

تتمثل صورة الغلاف في نار ملتهبة متأججة بداخلها عين إنسان، تحمل في داخلها آثارا وشقوقا حادة، هي طبعا من جراء الاحتراق. وإن دلّ اجتماع العين بالنار على شيئ، فقد دلّ على اجتماع السحر بالشعوذة اللذين تقوم مبادئهما على تجانس العين والنار، وائتلافها، وهما عالمين مرتبطين أشد الارتباط بعالم الجنون/الهلوسة.

يعتبر اللجوء إلى هذا النوع من التداوي والاعتقاد به ضرب من ضروب الجنون والهلوسة، إذ يأتي في المتن ما يدعم مدلول الصورة وإيحائها: "ولما علم الناس أنّ غيرهم لن يعطونا المال إلا مجبرين، لجئوا إلى حيلة تمكّنهم من مخادعة من قل نصيبه من العقل... ومن هؤلاء: الكهنة الذين يدّعون أنّ الجّن يطلب كذا وكذا من المريض، وما عليه إلا السمع والطاعة، وإلا تلبسه الجن

1- ينظر: حافظ أمين، **الإضطراب الوجدانى ثنائي القطب**، المجلة الطبية الصحية العربية الأولى، منتدى الدكتور نبيل سفيان للإرشاد النفسي، أفريل 2010، موقع: http://dr-nabeel.com/mont/viewtopic.php?f=19&t

2 – أحمد فرشوخ، **جمالية النص الروائي، مقاربة تحليلية لرواية " لعبة النسيان"**، ص11.

ومسخه قردا أو حمارا... وما كان للمريض ليعطي الكاهن ماله لو لم يستعمل شيئا من الغيب لعلمه بأنّ الإنسان يقدّس الغيب ويهابه[1].

وليس هذا فحسب، بل هناك من يحلمون بولوج عالم الجنون، وهؤلاء أشبه بمن يلجئون إلى عالم الشعوذة، العالم الذي ينفرد بقيم تختلف عن الواقع، حيث يشعر العليل أنّه فوق الجميع إذ يتوهم أشياء لا تمت بصلة لما يحيط به؛ وقد عرض صاحب الكتاب سلوكات وتصرفات هي من صميم عالم الجنون، وتلك التّصرفات تبيّن حيرة الإنسان أمام هذا الوضع الصعب الذي يواجهه في الحياة، وهو بلا شك الوضع الذي يجعل الإنسان يتنازل عن أنفته وكبريائه لأجل عالم حقير يصور نفسه في أجمل صورة.

ومن هذا المنطلق، نذكر أنّ لصورة الغلاف مضمونا لا يختلف البتة عن محتوى الكتاب أهدافه: "إذ الكتابة في بعض أشكالها حديقة من حدائق الجنون.. فصنفت هذا الكتاب ووسمته بـ الهلوسة في اللغة والأدب"[2].

- **لماذا الهلوسة؟:**

الهلوسة هي نوع من الجنون، والجنون هو الجانب المخفي والباطني من العقل، وهو عكس التعقل، والمؤلف وإن ادعى جنونه بقوله أو بادعائه أنه كتب كتابه في حالة انهيار عصبي وغيابه عن الوعي، فإن ما ورد في المتن ينبئ بعكس ذلك، إذ نجد ما يؤكد هذا الإصرار على ولوج عالم الجنون، وذلك في قول صاحب الكتاب: "شمرت على ساعدي وأردت خوض هذه المغامرة بنفسي"[3]. وقوله أيضا: "ألفت هذا الكتاب لما بدأت قواي العقلية تنهار،

1- عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب**، دط. منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري تيزي-وزو:2010، ص38-39.

2- عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب**، ص8- 9.

3- المرجع نفسه، ص8.

وقدراتي الفكرية تتراجع إلى الوراء خطوات معتبرة"[1]. وكذلك قوله: " عندما خطر ببالي دخول حدائق الجنون، والتنزه بمظاهرها الجميلة، والتمتع بألوانها ذات الروائح الطيبة"[2].

إنّ استعمال الكاتب لكلمة "بال" دليل على حضور العقل وإدراكه لما يكتب ويدور حوله. مما يؤكد أن المؤلف ألّف كتابه وهو في كامل قواه العقلية، وإنّ ادعاءه الجنون ما هو إلاّ هلوسة (إن صح القول). وعلى هذا ليس مستبعدا أن يكون العنوان مستخلصا من هذه الفكرة، أي ادعاء الجنون ما هو إلا هلوسة وفقط. بمعنى أن الكتابة تدل على أن المؤلّف كان في حالة وعي تام، فأن تكتب عن جنونك معناه أن تتعقل هذا الجنون، فلا يمكن لفاقد العقل أن يكتب عن حدائق الجنون بكل هذا الوعي والتعقل. إذن فالبنية العميقة المشكلة لهذا النص هي: تعقل # جنون، فمن يتعقل جنونه يكون في قمة الوعي، إذ يبدو الشخص في الظاهر مجنونا لتصرفه تصرفا كهذا، ومن ينعت نفسه بالجنون هو في الحقيقة يتهم غيره بذلك، بمعنى أن صفة الجنون موجهة للآخر لا إلى (الأنا) المؤلف نفسه. وما ورد في المتن يؤكد ما ذهبنا إليه، إذ يقول المؤلف: "كنت مجنونا حين مدحتكم. ومازلت مجنونا حين هجوتكم"[3].

وبتفكيك العنوان يتضح لنا أنه مؤلف من ثنائيتين، أي ما يشكل البنية العميقة للعنوان وللنص ككل باعتبار أن العنوان يحيل إلى مكنون النّص.

إن البرنامج السردي للمؤلف ولسارد النص يتحدد وفق موضوع قيمي يتمثل في رغبة السارد في ولوج حدائق الجنون. فهو (السارد) في بداية النص منفصل عن موضع القيمة الذي يود تحقيقه، إذ يسعى جاهدا للوصول إلى غايته، وذلك باستثمار معطيات الكفاءة التي تتمثل في: رغبة الفعل، معرفة الفعل، قدرة

---

1 – المرجع نفسه، ص9.

2 – نفسه، ص13.

3 – نفسه، ص32.

الفعل، وجوب الفعل، أي الشروط التي تحقق له ما يصبو إليه. ويمكن أن نلخص وضعية السارد حسب ما يلي:

الحالة البدئية: السارد (أي الذات) في حالة انفصال عن موضوع القيمة (ولوج عالم الجنون)، وهو ما يتجلى في قوله: "ولما كنت أود من أحد الذين انتقلوا إلى ذلك العالم أن يقيم جلسة يمكن تسميتها محاضرة، ولا يمكن تسميتها لقاء صحفيا، ويمكن تسميتها ملتقى، وعلى كل حال لا يهمنا اسمها والمهم أن يقيمها ويفهمنا بعض مبادئ ذلك العالم ويصف لنا أهم حدائقه"(1)

يسعى السارد بشتى الوسائل لتحقيق هذه الغاية، وهذا ما يتأكد من قوله: "ولما طال بي الانتظار، وكلما رأيت ذاهبا توسمت فيه الرجوع إلينا وجدته أكثر هجرا من سابقيه، شمرت على ساعدي، وأردت خوض هذه المغامرة بنفسي، ثم أكتب لناس شيئا"(2). وهكذا تسنى للسارد تحقيق هدفه، إذ انتقل من حالة انفصال إلى حالة اتصال .

السارد v ذv حدائق الجنون ⇐ السارد Λ ذ Λ حدائق الجنون

إن هذه الوضعية ما هي إلا برنامج سردي فرعي مثله مثل بقية البرامج التي تنضوي تحت البرنامج السردي العام للنص، والمتمثل في البحث عن الحقيقة وتقصيها في مختلف المجالات، وفي مختلف المراحل ومنها مرحلة الوهم والهذيان باعتبارها السبيل لمعرفة الحقيقة. بداية كان السارد في حالة مساءلة أو في حالة سلبية بعيدا عن الحقيقة " ثم أعود للبحث عن الوسائل المقربة من الحقيقة بعد هذه الاستراحة فأقول لك: ما تقول في العقل أموصل إلى الحقيقة؟ وهل العقل مناقض للفطرة؟(3). وعبر جملة من البرامج (التي لا داعي للتطرق إليها بالتفصيل: الجنون/العقل، الفرع/الأصل..) يتوصل السارد إلى تحقيق برنامجه السردي العام

---

1 – عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب**، ص8.

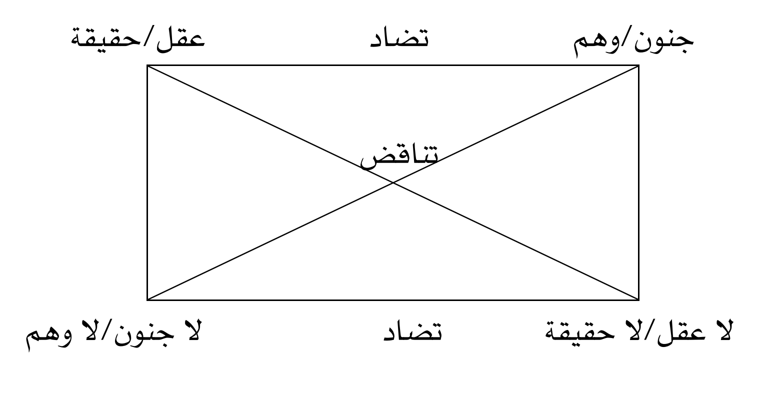
2– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3 – عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب**، ، ص107.

من خلال استنتاج مفاده: " وبذلك أكون وإياك قد توصلنا إلى أن الدين من السبل الموصلة إلى الحقيقة، والحمد لله الذي هدانا للإسلام"[1].

وإذا تحدثنا عن برنامج خاص بمؤلف الكتاب لا بسارده، فإنه يشتمل على رغبة المؤلف وطموحه في أن "يوضع عنوان كتابي هذا مع عناوين كتب أخرى في المكتبات الجامعية، والوطنية، فأتعب به الباحثين المبتدئين الذين يقرؤون كل العناوين المفهرسة في المكتبة.. وأن يقع هذا الكتاب بين يدي رجل قليل العلم فيظن أن ما فيه حق وصواب، ثم يقع بين يدي رجل ناقد متفحص عالم، فينتبه من أول كلمة إلى خطأين، فتحثه الروح النقدية فيحضر ورقة وقلم، ويستفرغ جهده لنقده، وكلما قرأ، توالدت الأخطاء والهفوات بشكل مذهل، إلى أن يجتمع لديه حجم الكتاب مرتين"[2].

ينبني نّص المؤلَف ككل على مجموعة من الثنائيات، منها ما هو ظاهر أو سهل الاستشراف، ومنها بعض البنى العميقة التي لا تستخلص إلا بعد الانتهاء من قراءة النّص، ومن الثنائيات التي تشكّل نسيج النص، نجد: الجنون/ العقل، الوهم/ الحقيقة، وعلى هذا الأساس فإن الجنون مقابل غير مباشر للجنون، بينما يمثل العقل المقابل المباشر للحقيقة. ولا بأس إذن أن نلخصها في الترسيمة التالية:



1- المرجع نفسه، ص117.

2 - نفسه، ص12.

3- آراء حول كتاب الهلوسة في اللغة والأدب:

- التأثر بأفلاطون: يبدو أنّ عالم الجنون أو حديقة الجنون عند مؤلف كتاب الهلوسة هي أشبه بالمدينة الفاضلة عند أفلاطون التي تحمل القيم العليا، وما العالم إلا محاكاة لعالم المثل، فالمدينة الفاضلة تحتفي بالقيم غير العادية، أو بالأحرى تحتفي بقيم مدينة الأرض وترتقي بها إلى درجة التقديس. وقد أعطى صاحب هذا الكتاب لحديقة الجنون من المكانة والرفعة ما يقترب إلى التقديس ويقول: "ولكن ناسا ذهبوا من بيننا فولجوه ليلقوا عليه نظرة سريعة ثم يعودوا إلينا، فأعجبتهم أزهاره ذات الألوان الزاهية، وبنياته النقية الطاهرة، وأبهرتهم دقة تسيير أهله لإدارة مؤسساتهم، وحسن اختيارهم لموظفيهم، واندهشوا أمام براعة مهندسيهم في شق طرقات مدينتهم ورسم مسالك مياهها، فبقوا هناك ولم يعودوا إلينا ليخبرونا عما رأوه علنا نجلب إلى عالمنا شيئا من تلك الحضارة الراقية إن استطعنا إلى ذلك سبيلا"[1].

إنّ مثل هذا القول لا يهدف منه المؤلّف إلا للسخرية من العالم الذي يعيش فيه، إذ يبدو عالم الجنون بالنسبة إليه أحسن من عالمه الذي يحيا فيه. وهو ما يتأكد في قوله: "اعتبر نفسك منتقلا من أسوأ إلى أحسن"[2].

- التأثر بالجاحظ: يظهر من خلال كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب" أن مؤلفه متأثرا جدا بمؤلفات الجاحظ وبطريقته في التحليل، وبلغته وأسلوبه الاستعاري المسجّع، ويتجلى ذلك في قوله: "أيها الشيخ الجليل، والقطب النبيل، ذو الوجه الجميل، والقد الأسيل، والخد الوبيل، عرفتك بالشيخوخة عليلا، ومن الصيام نحيلا، ومن القيام كليلا، وأنك باق على عهدك، ومتمسك بنهجك، ولو أمات الله جيلا وخلق جيلا، وما أنا إلا أحد مريديك، لعلي أقتبس من

1- عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب**، ص8.

2 - المرجع نفسه، ص15.

نوركم، وأهتدي بهديكم، فلست أطمح في مسكن ولا مأكل كثيرا كان أو قليلا.."[1]. يبدو أنّ المؤلف قد أخذ الكثير عن الجاحظ، ويتجلى ذلك أول الأمر في طريقة تفصيل الكتاب، ولنؤكد على ما ذهبنا إليه نستعرض مقدمة المحقق لكتاب البيان والتبيين للجاحظ من ثم نبرز نقاط التأثر: "إنّ دأب الجاحظ في تأليفه أن يرسل نفسه على سجيتها، فهو لا يتقيد بنظام محكم يترسمه، ولا يلتزم نهجا مستقيما يحذوه، ولذلك تراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا، ثم يدعها في أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى، ثم يعود إلى ما أسلف من قبل"[2]. وهو الأمر نفسه الذي نجده في كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب"، حيث ينتقل صاحبه من موضوع لآخر كأن يبدأ فكرة في صفحة معينة ثم يستطرد في شرح أمور جانبية، وبعد صفحتين أو أكثر يرجع إلى موضوعه السابق الذي لا يفتأ أن يغادره لإلى حين عودته إليه، ومثال ذلك أنّه يطرح قضية الفطرة وعلاقتها بالحقيقة في الصفحة 71 بقوله: "ودون أن أُطيل: ما رأيك لو يفهم الإنسان الفطرة التي جبلت عليها الخلائق، ويتبعها فهل سيكون إنسانا سويا، ويمكنه القول أنّه توصل إلى الحقيقة التي دوخت أشخاصا كثيرين"[3]، ثم يقول: " اسمح لي أيها الصديق العزيز أن أستطرد في شرح هذه الفكرة - أقصد عدم فهم الإنسان كلامه- في سطور، ثم أعود إلى رأيي بشأن الفطرة"[4]، ولا يعود إلى هذا الموضوع إلا في الصفحة81، متحدثا آنذاك عن علاقة الفطرة بالحقيقة، ويترك موضوعه للمرة الثانية، ولم يعد إليه إلا في الصفحة 100 و1001، وهذا دواليك مع الموضوعات الأخرى.

1- نفسه، ص14.

2- أبي عثمان عمرو بن الجاحظ، **البيان والتبيين**، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد بن هارون، ج1، ط7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1998، مقدمة المحقق، ص6.

3- عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب** ، ص71.

4- المرجع نفسه، ص71- 72.

يتجلى تأثر مؤلف الكتاب بالجاحظ كذلك في تناوله لمواضيع مختلفة، قد يتخيل القارئ أنّها لا تمت لبعضها البعض بصلة، إلا أنّ الخيط الرابط بين هذه المواضيع ككل يظل واردا وموجودا، وهو ما نجده واردا في كتب الجاحظ الذي تجمع مؤلفاته بين عدّة مواضيع، ومثال ذلك: البيان والتبيين، الذي نقرأ فيه عن: البيان والبلاغة، الخطابة، الشعر الرسائل والوصايا، النوكى والحمقى.

ولقد استشهد مؤلف كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب" بكتب الجاحظ ثمانية وعشرين مرة (25 مرة بالبيان والتبيين، مرتين بالحيوان، مرة واحدة بالبخلاء).

ويظهر تأثره بالجاحظ كذلك في أسلوبه الفكاهي وروحه المرحة، و"الجاحظ ذلك المرح الضاحك، لا يفتأ يعجّب الناس من هذا الخلق الطريف، أولئك الذين شاء الله أن يكونوا مصدر عبرة وموعظة، كما شاء أن يكونوا مصدر عزاء وتسرية عن النفس"[1]. فالجاحظ معروف عنه أسلوبه الجميل والرصين، النقدي والفكاهي الساخر، وهذه حيلة من حيل الجاحظ حتى يُبعد الملل عن القراء عند قراءتهم لكتبه المطولة، ونحن نتساءل في هذا المقام عن سر توظيف مؤلف الكتاب لهذا النوع من الأسلوب؟ مع أنّ كتابه هذا صغير الحجم يمكن أن يُقرأ في وقت قصير.

- التأثر بابن جني:

يظهر من خلال كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب" تأثر مؤلفه بكتاب ابن جني "الخصائص"، الذي استشهد به كثيرا، بالأخص أثناء الحديث عن التام والناقص، وكذلك عن الفرع والأصل (في قضايا اللغة)، وكما استشهد بكتاب الخصائص تسعة وعشرين مرة، إذ خصص جزء من الكتاب سمّاه " وقفة مع ابن جني".

---

1 - أبي عثمان عمرو بن الجاحظ، **المرجع السابق**، مقدمة المحقق، ص13.

- **التأثر بسيبويه:** استعان الكاتب بكتاب سيبويه "الكتاب" تسع مرات.

4- إستراتيجية مؤلف الهلوسة في صناعة القارئ: إن مؤلف "الهلوسة" يتعامل مع قارئين، أحدهما مفترض والآخر موجود وجودا حقيقيا، ويقصد به كلّ قارئ يرغب في قراءة هذا المُؤلَف، والكتاب قد أُلف لأجله لا لأجل القارئ المفترض: "وهدفي من تأليفه أن يجده قارئ مبتدئ لا يفرق بين جيد الكتب ورديئها في مكتبة من المكتبات فيشتريه، (..) فيفاجأ عند وصوله إلى البيت أنه لم يزد على أن اشترى كومة من ورق، وشيئا من هلوسة شخص رفع عنه القلم، وهنا أكون سعيدا أني أعطيته درسا قاسيا يتعلم منة خلاله كيفية شراء الكتب، وعليه مستقبلا عند شراء كتاب، أن يقف نصف ساعة متصفحا أوراقه قبل الإقدام على شرائه، فلا يعتقد بعد وقوعه في هذه الخديعة التاريخية أن كل ورق عليه حبر كتاب"[1].

أمّا القارئ الافتراضي، فهو ذاك القارئ الذي يظل مرافقا للكاتب عبر صفحات الكتاب، مخاطبا ومحاورا إيّاه تارة وساخرا منه تارة لأخرى. وهذه الاستراتيجية قد تكون مستوحاة من التأثر "بلوكيوس أبوليوس" الجزائري الأصل، صاحب أوّل رواية في تاريخ البشرية "الحمار الذهبي"، وكان أبوليوس أول من رد الاعتبار للقارئ من خلال مخاطبته إيّاه مباشرة باستعمال كاف الخطاب، وذلك لأجل استمالة القارئ نحو النص وجعله يشعر أنه مشارك في إنتاج النص، فلا يغادره أبدا، ويقول صاحب الحمار الذهبي:" أريد أن أظفر لك بأسلوب مليزي باقة من الحكايات المتنوعة، تدغدغ أذنك الصاغية برنين عذب- إذا كنت ممن لا يأنف أوراق البردي المصرية، التي كتبتها بقصب

1 – عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب**، ص9.

النيل- إلى درجة أنّك ستعجب كيف يتخذ بعض الناس أشكالا غريبة وهم يستعيدون صورهم الأصلية على وجه مغاير "[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ مؤلّف "الهلوسة" قد استثمر هذه الطريقة، وهو ما يتأكد من مخاطبته للقارئ:" ثم أجيب نفسي بنفسي- ويصح لك أن تجيب معي أو أن تعارضني، فإن كانت لك ملاحظات فخذ قلما وورقة وقيدها مادامت في متناولك"[2]. ويقول له كذاك: "وهذه العبارة المختصرة تزن جبالا وجبالا، وتجعلك كما تجعلني أحس ببعد الغاية التي بدأنا البحث عنها، إذ تطالبنا بعد وصولنا إلى الحقيقة التي عشنا هذه اللحظات متشوقين إلى إدراكها بإيثارها عن غيرنا عند معرفتها.."[3].

وفي موضع آخر من الكتاب يقوم المؤلف بمساءلة القارئ: " وقبل ذلك أردت أن أسألك، فإن لم تستطع الجواب أجبت نيابة عنك، ثم أعود بك إلى البحث عما بدأنا البحث عنه"[4]. وكما سبق وأن أشرت تكتسي هذه الاستراتيجية أهمية في كسب القارئ من أجل ضمان وصول الرسالة.

ونحن لا ننكر وجود هذه الظاهرة في مؤلفات الجاحظ، ذلك في مثل قوله: "أنا أوصيك ألا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أن فيهما طبيعة"[5].

5- لعنة الهلوسة: طرح الدكتور الطبيب خالد جمال (طبيب مصري) في مجلة العربي قضية أخالها مهمة جدا لكونها تكاد تصبح ظاهرة شائعة أو أقول موضة شائعة بين المبدعين، وتتمثل هذه القضية في علاقة المبدعين بالمرض أو علاقة الطب بالمشاهير. ففي دراسة أجراها هذا الدكتور لحياة الفنان الرسام

1- لوكيوس أبوليوس، **الحمار الذهبي**، أول رواية في تاريخ الإنسانية، ترجمة: أبو العيد دودو، ط2، منشورات الاختلاف، الجزائر، أفريل2004، ص66.

2- عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب** ، ص68.

3 – المرجع نفسه، ص71.

4 – نفسه، ص101.

5 – أبي عثمان عمرو بن الجاحظ، **البيان والتبيين**، مقدمة المحقق، ص8.

الهولندي المشهور "فان جوخ" الذي أصيب باضطراب ثنائي القطب" الاكتئاب والهوس"، فيقول: " هل هناك علاقة بين المرض النفسي والفنون؟ هل هناك علاقة بين الاضطراب النفسي وقدرة الفرد على الإبداع بشكل يختلف عن الآخرين؟ ما زال السؤال يطرح نفسه في العديد من قاعات البحث، وبواسطة متخصصين في علم الجمال وعلاقته بعلم النفس الحديث"[1].

لسنا هنا بصدد المقارنة بين مؤلف "الهلوسة" والفنان فان جوخ، ولا بصدد اتهامه بالمرض النفسي، لكن وبما أنّ الإبداع أو الكتابة بصفة عامة عملية شديدة الخصوصية والغموض، فإن هناك دائما ما يجعلنا نربط بين الإبداع الذي هو نتاج الفكر، والنفس التي هي مرد الهوس. فالأمر الأكيد هو أنّ هناك علاقة ما خفية بين الظاهرتين، لا ندري أهي نتيجة بلوغ سن يأس الكتابة، أم حالة لا بد منها، وكل مبدع شاء أم أبى سيمر منها، ولا أقول قولي هذا إلا لوجود حالات كثيرة من المبدعين الذين يدعون الهوس، أو ربما يناشدون الهلوسة، فأنا لا أسميها تجربة الهوس/ أو الهلوسة، إنما أسميها تجربة ادعاء الهوس/ أو الهلوسة. فهذا "جان جونيه" يكتب عن الجنون، وهذا "ميشال فوكو" يكتب عن تاريخ الجنون، وهذا الروائي الجزائري "السعيد بوطاجين" الذي قيل عنه أنّه مصاب بلعنة الهلوسة الإبداعية ليصل إلى حد جمعية ثقافية افتراضية تضم مجموعة من المبدعين الذين أصيبوا مثله بلعنة الهلوسة، ويسميها هذا الروائي "الجمعية الحميرية" لرد الاعتبار - حسب ادعائه- للحمار حامل الأسفار (الكتب)، إذ يصل الحد به إلى رفض المعادلة التي كان يسير عليها المجتمع، ويرفض رفضا باتا قول كلمة "حاشا"[*] التي كانت تقال تأدّبا واحتراما للشخص الذي نتحدث معه.

---

1 – خالد جمال، **الطب وأمراض المشاهير فان جوخ.. نموذجا**، العربي، مجلة شهرية ثقافية مصورة، العدد 611، الكويت أكتوبر 2009، ص152.

* – تحمل معنى الاستثناء.

هناك "جمعية المسلوسين العرب" أيضا، ومبدأ صاحب الهلوسة يشبه إلى حد كبير مبادئ وطروحات هذه الجمعية، وهذه التسمية (المسلوسين) هي إحياء لشخصية الأهبل راكب القصبة وحامل الصافرة في الرواية العربية. يشرح الكاتب والناقد السوري "نبيل سليمان" معنى هذه التسمية بقوله: "أي جمعية من ذهب عقلهم"[1].

ويضيف صاحب المقال شارحا مبادئ الجمعية: "على أية حال سأدع القارئ الآن مع إعلان مبادئ (جمعية المسلوسين)، ثمّ مع (بيان مؤتمر المجانين العربي اللّغوي الأوّل) الذي كتبه خطيب بدلة ونشره وأعاد نشره في دورية فدورية، أسوة كبار الكتاب، والله من وراء القصد.. المسلوسون ائتلاف طوعي عام"[2]. وبعدها يضيف بسخرية من يدعي الجنون قائلا: "مقدمة: يحدث أن يتدلى الفرد، ولا يصل. ويحدث أن يفكر، ويتأمل فيضيع. ويحدث أن ينزرّ الجهات الأصلية والفرعية، فينضغط ويكتشف الحكمة. عندئذ يصبح مسلوسا من سلسَ، يسلِسُ، فهو مسلوس، أي ذهب عقله (قاموس لسان العرب). ومن مبادئ الائتلاف:

- تنمية الجنون وتأصيله لدى الكُتاب بخاصة، والمثقفين بعامة، فلا قيود ولا شروط.

- تزول صفة العضوية في الحالات التالية:

1- الوفاة

2- انسحاب العضو طوعا

3- إذا استعاد العضو ملكاته العقلية، جزئيا أو كليا"[3]

---

1 - نبيل سليمان، **أيها المسلوسون يا مجانين العرب: اتحدوا**، مقال، أخبار الأدب، صحيفة، العدد35، الأحد 17-12- 2006 ص35.

2 - المرجع نفسه، ص35.

3 - نفسه، الصفحة نفسها.

فكل هذه المبادئ نجدها واردة في كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب"، وذلك من خلال حديث مؤلف الكتاب عن عالم الجنون وعن الشروط والمبادئ التي لابد أن يتقيد بها مدعي الجنون، إذ يقول السؤال السادس من هذا الكتاب: بم تنصح رجلا يريد أن ينتقل من عالمكم إلى عالمنا؟ (عام الجنون) فيجيب: .. عوّد نفسك تجاهل القوانين الاجتماعية التي ألفتها منذ صغرك، واجعل مدح الناس لك وذمهم إيّاك سواء، ولا تأبه بمواقفهم منك سواء أرضوا عنك أم سخطوا عليك، ولا تفكر في مستقبل، ولا مشروع، ولا أبناء، ولا زوجة، ولا عائلة، ولا شيء مما يشغل فكر الناس، ويملأ أوقاتهم، ويتعبهم ليلا ونهارا. إذا أمكنك التوصّل إلى هذه الدّرجة فاعتبر نفسك حافظا ألف باء الجنون ولما تصبح مجنونا بعد، وإنما يتحقق الجنون في القدرة على تطبيق ما تعلمته، وإلا لكان ما آمنت به حبرا على ورق... اليوم الأول: لا بأس أن تبتسم دون سبب من حين إلى حين، ولا يهمك أراء الناس أم لم يروك...اليوم الثاني: وبعد أن حزت على أول وسام شرف، لا تكن مستعدا لأن تضيعه وتصبح سخرية للبشر، وعليك أن تنزع عنك لباس الأناقة وتبدله بلباس يميزك عن العالم الذي سئمت منه ومن أهله...بعد أن يعرف الجميع جنونك ويعترفون به، لا بأس أن تستلقي في شارع من شوارع المدن الكبيرة بين كومة من الأشياء التي جمعتها في أماكن مختلفة.."[1].

ومن خلال كلّ ما ذكرناه، ندرك أنّ ادعاء الجنون هو هوس/وهلوسة في حد ذاته، وليست الهلوسة في ادعاء الكتابة عن حدائق الجنون، لأن كل القرائن تؤكد أنّ الكتاب كتب في لحظة وعي وحضور للعقل، وإلا كيف نفسر حالة هذا التعقل للجنون (بمعنى حالة تشريح الجنون).

---

1 – ينظر: عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب**، ص15– 19.

5- قضايا كتاب الهلوسة في اللغة والأدب: يتناول كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب" قضايا هامة ومختلفة، إلاّ أنها ترتبط فيما بينها ارتباط اللغة بالكلام، إذ لاحظنا أنّ مؤلف هذا الكتاب على غرار ما يفعل الجاحظ قد تعرض لعدة مسائل، منها ما هو مرتبط بـ:

- المعاملات: قضايا أخلاقية (جنون) وآداب عامة: "وجدت بعد عودتي أشياء كثيرة من هذا العالم تشبهها: وجدت أنّه لا ينظر إلى الكلام في هذا العالم ولكن ينظر إلى المتكلم، فينبي على كلام الغني صاحب المناصب وإن كان كلامه خطل، ويذم كلام العاقل الفقير وإن كان كلامه من درر"[1].

- قضايا لغوية (النحو والصرف، الاشتقاق، الأصل والفرع، البلاغة والبيان): فقد تعرض لجملة من قضايا اللغة، وذلك بإبراز جذورها (الأصل)، وكما تعرض لبعض القضايا التي لا تزال بحاجة إلى النقاش، كقوله مثلا: فما تقول في دراسة الجاحظ لعيوب الكلام[2]. ثم استعراض مصطلحات أمراض الكلام وعيوبها التي استعملها العرب[3]. فإنّك لما تسمع بكتاب عنوانه " الحيوان"، فإنّك لا تعتقد- لو لم تكن اطلعت على الكتاب- أنّ به دراسات نقدية، وآراء لسانية، إضافة إلى آراء فلسفية، وأخبار أدبية. وإنّما الظاهر أنّه كتاب يتحدث عن القط والأرنب والحمار والثعبان والثعلب والبعوض والذئاب إلى ذلك من هوام الأرض وحشراتها.. قل لي بربك، هل تستطيع أن تحدد موضوع كتاب عنوانه "الكتاب" لو لا شهرته بين الناس، وجريان ذكره على ألسنتهم"[4].

---

1 – المرجع نفسه، ص12.

2 – نفسه، ص83.

3 – نفسه، ص83، 84.

4 – عمر بورنان، **الهلوسة في اللغة والأدب** ، ص10.

- النكى والوصايا: " ... وبدأت بالصنف الأول لدفع الملل عن القارئ لما فيه من الطرافة، والخفة. لأنّه من الهزل أقرب، وبالنكتة أشبه، وللتحذير من أن تتبع المرأة ذلك الطريق الذي لا يزيد حياتها وحياة أسرتها إلا هما على هم والله الهادي إلى سواء السبيل..ومن ثم على كل رجل متزوج أن يقدم لزوجته تصريحا شرفيا يؤكد لها إخلاصه التام غير المرتبط بشروط، فإن كنت أيّها الرجل لا تعرف كتابة هذا التصريح فإليك النسخة التالية"[1]

القيمة العلمية للكتاب:

- الكتاب ذو قيمة معرفية، وهو كتاب تعليمي هادف، إذ نجد أنّ الجزء الأول منه موجّه لفئة الناس الذين يؤمنون بالشعوذة، أي المجانين والمهلوسين بحمى الشعوذة. أما الجزء الثاني منه موجّه لجمهور القراء بمن فيهم الطلبة، وعامة الناس كونه يتناول قضايا لغوية وأخلاقية، وقضايا فقه والمعاملات.

- وعلى العموم، يتميز الكتاب بقيمة علمية وأدبية عالية، فقد تطرق المؤلف إلى موضوع أدبي هام، مُستعملا لغة إبداعية راقية، فهو يتناول الموضوع بطريقة نقدية، حيث تطرق لقضية هامة في الحقلين الدراسي والتعليمي، ألا وهي قضية حسن اختيار الكتب الملائمة.

- الكتاب في جزئه الأخير عرض لقضايا لغوية.

نقد وتقييم: إن هذه المحاولة رغم ما تتميز به من ايجابيات، إلا أن هناك ما يؤخذ عليها من حيث إنّها لم تستوف الموضوع أو السبب الذي دفع بالكاتب إلى تأليف هذا الكتاب، إذ انساق وراء حدائق الجنون، ونسي موضوع الكتاب الذي أعلن عنه في المقدمة، والمتمثل في كيفية اختيار الكتاب المناسب، وكيفية تصفح الفهارس حتى لا يضيع القارئ الوقت والمال الكثير في اقتناء كتب لا يحيل عنوانها إلى ما في متنها.

---

1 - المرجع نفسه، ص78- 90.

انتقد المؤلف ظاهرة شائعة بين الكتاب والقراء، وهي – كما قلنا- المسافة بين العنوان والمحتوى، إلا أنه وقع في براثين ما كان ينتقده.

وما يُعاب على المؤلف نجد أنّه ينتقل من موضوع إلى آخر بسرعة مذهلة، فقد انتقل من موضوع الجنون إلى موضوع الأدب - قتد القتاد- ، ثم إلى قضية الترجمة والتعريب في فقرة صغيرة لا تتجاوز عشرة أسطر

خاتمة: إنّ كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب" يبقى دون منازع ثمرة الاطلاع الدءوب للباحث على مؤلفات الجاحظ، وعلى عوالم الجنون، فهو إن أصاب فله الفضل في إتاحة الفرصة للقرّاء لزيارة حدائق الجنون، وكذا فرصة الاطلاع على جزء بسيط من مكتبة الجاحظ رحمه الله وإياك وإيانا جميعا.

قراءة في كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب"

"لعمر بورنان"

عناصر الورقة

- تمهيد

1- عرض عناصر الكتاب وتفصيلاته

أ- الجانب الشكلي للكتاب

1- الغلاف

2- العنوان

3- أجزاء الكتاب

ب- الجانب المادي للكتاب "المضمون"

1- اللغة

2- أفكار ومضامين الكتاب

2- آراء في الكتاب

خاتمة.

تمهيد: تؤسس القراءة مهما كان شكلها أو نوعها مرجعًا ثانيًا لأي عمل علمي أو إبداعي مهما كان نوعه- مؤلف علمي يصب في اختصاص معيّن ذو إحكامات ومقاييس أكاديمية علمية صارمة، أو عمل أدبي على اختلاف أنواعه أيضا: شعرية، ملحميّة، (شعر عمودي أو حر) أو نثرية (قصصية، روائية، مقاميّة... أو غيرها).

ويأتي مؤلّف "الهلوسة في اللغة والأدب" لصاحبه مولود جديد لمخبر الممارسات اللغوية التابع لجامعة مولود معمري في شكل عمل إبداعي نثري يُحاول المؤلف من خلاله وضع قالب جديد لمفهوم الحداثة والتراث في ظل ثنائية الفكر التراثي و اللّغة الحدثية أحيانًا، واللغة التراثية ـ الجاحظية- المقفعيّة ـ والفكر الحديث أحيانًا أخرى، فكيف تسنى له هذا ؟

نرى أنّه من خلال طرحه لفكرتين هما:

1- الأولى: والّتي تكمن في محاولة المؤلف إعادة هيكلة الفكر العربي اللّغوي الجاحظي كمفكر لغوي تراثي في الأوساط العلمية الحداثية (المادية، أو المعنوية) (القراء، المتلقون) والفكرة العلمية.

2- أما الثانية: فقد جاءت خادمة للفكرة الأولى، وتمثلت في اللّغة المستخدمة في المُؤلف قد استهدف اللغة كوسيلة تبليغية، تواصلية لحمل أفكاره المتراوحة ما بين التراث والحداثة، فجاءت هي أيضا (اللّغة) متراوحة ما بين الصياغات التراثية القديمة والصياغات اللّغوية الحديثة.

وهنا أتيت متسائلة:

- ما هي رغبة المؤلف، ومبتغاه من هذا الطرح ؟

- هل أراد من خلال مؤلفه هذا إعادة تأسيس المعطيات التراثية (الفكرية واللّغوية) ذات الصّلة اللّصيقة والمباشرة بالفكر اللّغوي العربي التراثي؟

هل أراد هذا المبتغى، وهل شَعَره ؟

أم أنّنا نحن كقرّاء من شعرها !؟ ونسج تصورات بعيدة لهذا المؤلف من خلال تطلعاتنا إليه وقراءاتنا المكررة له ؟!

للإجابة عن كلّ هذه المطروحات، وبالتالي تعزيز قيام هذه الفكرة أو نفيها سنحاول الوقوف عند بعض النقاط، والّتي ستسمح لنا بالكشف عن هذا المطلب و لربما عن مطالب أخرى لم نكن لنتعرف إليها من خلال هذه الأخيرة وأهمّها:

1- **التعريف بعناصر الكتاب وتمفصلاته:** نطرحه من خلال جانبين:

أ- الجانب الشكلي.

ب- الجانب المادي.

أ- الجانب الشكلي للكتاب:

1- الغلاف:

❖ **ألوانه:** أول ما يشدّ انتباه القارئ هو غلاف الكتاب الذي جاء في شكل راق جد من حيث تناسق ألوانه وحسن اختياره بحيث تراوحت مابين:

أ- اللون الأسود: والّذي حملني على القول إنّه جاء ليطبع عمق فكرة المؤلف، وغموضها.

ب- اللّون الرمادي: والّذي رأيت من خلاله أنّ الأفكار الأدبية ارتجالية ترد في أغلبية الأحيان مضطربة معبرة عن اضطراب نفسية الأدباء منذ البدايات الإنسانية الأولى.

ج- اللّون البرتقالي: لون النار، والحرقة في التعابير الفرنسية، ولون الشوق، والاشتياق في التعابير العربية الحديثة ولون الاكتواء بنار الحب في الكتابات القديمة خاصة العربية والإغريقية.*

---

*- مصطلح النار ولونه وارد بشكل ملفت للنظر ـــ بكل مرادفانه في أغلب الكتابات الأدبية الشعرية والنثرية العربية القديمة، وهو ذو شأن فيما ورد علينا من الآداب الإغريقية القديمة بدليل

❖ **أشكاله:** جاءت الألوان المؤسسة لغلاف الكتاب ـ المشار إليها أعلاه ـ في ثنايا أشكال معبرة، إذ لم نقل رائعة أهمها:

- شكل النار الملتهبة ذات اللون البرتقالي، الأصفر الملتهب ذو الألسنة الناطقة، الخارجة من حدقة العين البشرية.

- شكل العين البشرية أو الإنسانية التي جاءت بألوانها الرمادية والبرتقالية كتعبير عن منطلقات الرؤى، بؤرة الأمل، القراء، والقراءات المتعددة للإنسان لأحواله و ما يحيط به.

- الرموش: رموش العين الظاهرة، والّتي نظن أنّ مصمم الغلاف قد تعمد في إظهارها لربما للتدليل على مدى احتجاب واضطراب المعطيات، والرؤى الحياتية أمام العين المجردة.

- بؤرة العين: بشكل ملطخ ملتهب، جميل وراق، يحمل في ثنايا هذه الازدواجية عدم تماسك الصورة لدى بني البشر وفي هذا بعد عميق التصور، وبعد في عمق العلمية الإبداعية لدى المؤلف ذاته، ولدى كل المؤلفين، وخاصة الأدباء والمبدعين منهم.

ولربما يُترجم العنوان كلّ ما نقوله.

3- العنوان: عنوان الكتاب.

"الهلوسة في اللغة والأدب": عنوان مزدوج، أو في جزئين:

أ- الهلوسة.

ب- اللغة والأدب.

يُراود المطلع على الكتاب التطابق الصارخ بين صورة الغلاف، وأبعاد محتوى الكتاب بمجرد قراءة العنوان: "الهلوسة" بحكم أنّ الهلوسة تعني الهذيان، حسب قاموس المنهل في طبعته التاسعة والثلاثين لسنة 2009م، فهل

وجود إله النار في هذه الآداب، أو الكتابات الأدبية القديمة التي تعبّر عن ميتولوجيا الآداب العالمية وبدايتها الأولى.

أتى هذا المولود الجديد للتعبير عن الهذيان الّذي تعيشه عوالم اللّغة والأدب في العالم أجمع وفي العالم العربي خاصة.

ب- اللّغة والأدب: اللّغة مصطلح والأدب كذلك مصطلحان تداولتهما الدراسات اللّغوية والأدبية منذ الأزل إلى يومنا هذا، وهما علمان، ونظريات أيضا، فنقول نظرية الأدب، والنظريات اللّغوية، فهل أراد صاحب المؤلف الإشارة إلى الخلط الكبير الواقع في الدراسات حاليّا في هذه الميادين، أم أنّه أراد أن يقدّم بعض المسائل في اللّغة والأدب معا على طريقته وخوفا من الوقوع في أي اضطراب علمي كان أشار علينا بعنوان: "الهلوسة في اللغة والأدب" قائلاً: لا حجة قائمة عليّ قد أشرت.

تبقى كثير من الأسئلة مطروحة في الأفق، هذه الأسئلة المرتبطة وبشكل مباشر بغلاف المؤلف وعنوانه، تتراوح ما بين هدف وغاية اختيار هذا العنوان، و ما مدى تطابق هذا الأخير "العنوان" مع الغلاف من جهة، ومع محتوى الكتاب من جهة أخرى، وهو ما سنحاول الوقوف عنده في النقطة الموالية.

3- أجزاء الكتاب: المتتبع لتمفصلات الكتاب يجد أنّه أتى في جزأين مسبوق بكثير من المقدمات والحواشي، فأمّا عنه:

1- الجزء الأوّل من الكتاب: فقد طرح فيه المؤلف قضايا أدبية في شكل هزلي تراثي نحو حديثه في بعض أجزائه عبر بعض العناوين نحو قوله: أكذوبة الحياة، متاهة البطة والدجاجة... وغيرهما أيضا.

2- الجزء الثاني: وكأنّه شُرع فيه بعنوان هام فاصل:"هلوسة في اللغة"، أي أنّ المؤلف قد حاول الحديث عن اللّغة والطرائق الممكنة للهلوسة فيها ومن خلالها.

3- الحواشي والمقدمات: يعرف الكتاب في بدايته كثير من الحواشي والمقدمات نحو ما نجده في المقدمة و كذا الجزء المرتبط بأسباب وظروف تأليف الكتاب الّتي كان من الممكن جدًا الاستغناء عنها، زد على هذا فإنّ الجزء المخصص لعرض مميزات الكتاب فإنّه جاء كثير من التناقضات خاصة وأنّ

الكتاب قد جاء ذو حجم صغير؛ أي إنّه لم يرد في مجلدات كبيرة نحو؛ ما هو عليه الحال في المعاجم القديمة أو المؤلفات التراثية نحو: المقدمة لابن خلدون، وإحياء علوم الدّين للغزالي، وغيرها. والّتي تستدعي الحديث والإشارة عن مميزاتها للإلمام بها في جزءها الأول. وغيرها أيضا من المعطيات الأخرى الّتي سنعرض لها في الجزء الثاني من التحليل.

ب- الجانب المادي للكتاب "المضمون":

1- لغة الكتاب: اللّغة سليمة من حيث ألفاظها، مفرداتها، معجمها، نحوها، صرفها وسياقاتها، إلاّ أنّني أعيب على مسألة أراها هامة وهي فكرة الحداثة في لغة المؤلف أو الكتاب حيث نجدها تراثية جدًا بعيدة عن مفهوم الحداثة أو اللّغة الحديثة المتداولة في الوقت الراهن بين الكتاب والأدباء قياسًا بالمعطيات اللّغوية القديمة والمعطيات اللّسانية الحديثة، فاللّغة مراس واستعمال "Le langage est l'usage" نتطرق نحن كمختصين في الدراسات اللّغوية أو اللّسانية في شكلها العام إلى محاولة تحقيق مبدأ استحداث التراث اللغوي العربي وذلك عن طريق محاولة تجديده، مخضعين معجمه إلى التجديد اللفظي والمصطلحي* (إدراج ألفاظ ومصطلحات جديدة عن طريق الترجمة، التعريب، الاشتقاق... الخ) من جهة، وقواعده (قواعد الزاد اللغوي) إلى مهارات جديدة، ومقاييس سهلة الهضم والاستعمال من جهة أخرى. إلاّ أنّه وعلى الرغم من أنّ اللغة "لغة الكتاب" في أغلبها تراثية لا تحمل سيمات المؤلف المعاصر المعايش للظرف الّذي تعرفه اللغة العربية المعاصرة، إلاّ أنّنا شعرنا في بعض الفقرات ـ خاصة تلك المرتبطة بالجزء الّذي يطرح فيه المؤلف أسباب وظروف تأليف الكتاب، أنّ اللغة قد جاءت في شكل حداثي ذات ألفاظ ومفردات بسيطة سليمة التداول في

*- إشارة منا إلى ما لمسناه وما نلمسه في المجامع اللغوية و كذا المكاتب التنسيقية للتعريب و كل الهيئات الاستشارية الأخرى نحو: المخابر الجامعية و المراكز الساهرة على تعليم و ترقية اللغة العربية.

أوساطا الأسرة الجامعية المتخصصة وغير المختصة منها، نحو قوله: ... بدأت قواي تنهار... وقوله أيضا... وهدفي من تأليفه أن يجده قارئ مبتدئ لا يُفرق بين جيد الكتب ورديئها في مكتبة من المكتبات. بالمصطلح الاقتصادي الحديث.

وعند هذه النقطة بالذات تبادرت أسئلة كثيرة إلى ذهني مرة أخرى أهمها:

لمن وجه المؤلف نتاجه هذا وهو بصدد كتابته ؟ خاصة وهو يعتمد هذا النوع من اللّغة: لغة الجاحظ، ولغة ابن المقفع؟ متى؟ في الوقت الراهن"الآن " في القرن الواحد والعشرين: من التكنولوجيات والألفاظ المبتكرة المتجددة في ظلّ كل أسبوع إن طال الأمر عبر البورصات اللغوية الدولية التي أصبحت تعتمد على المكتبات الإلكترونية القائمة على الترجمات الآلية، والمصطلحات الجاهزة في ظل مفهوم البنوك اللغوية الإلكترونية ؟ و هل حدّد المؤلف الفئة التي وجه إليها مؤلفه و إن فعل فالطالب والباحث الجامعي قد أصبحا يتحاشا المؤلفات القديمة لصعوبة لغتها و طريقة كتابتها و بالتالي طريقة وضعها و ترتيبها؟

وهنا أتسأل مرة أخرى مع المؤلف قائلة: هل نسي مفهوم الوضع و قواعده؟ وبالتالي مفهوم الاستعمال اللغوي و دوره في تنضيج لغة معينة أم كيف ؟ و ما مدى دفع هذا الأخير (الاستعمال) لرحى الحركية اللغوية العربية عامة، و العربية الجزائرية خاصة ؟**

على الرغم من أنه لابد من الإشارة الواضحة إلى إننى لست ضد اللغة التراثية بألفاظها أو معجمها و إنّما أردت الإشارة فقط إلى مدى أهمية التذكير بالثلاثية اللسانية الحديثة و المتداولة حاليّاو التي تميّز الدراسات اللسانية الحديثة على حال غريمتها القديمة: "الدراسات اللغوية المقارنة و التاريخية" وهي : كون اللغة ظاهرة اجتماعية تعايش وتتعايش معه"المجتمع" تتطورو تحي بتطوره و هي أيضا "اللغة" استعمال وممارسة ماتت إن فقدت مفهوم الحرية المراسية، وهي

**- إشارة منا أيضا إلى المناهج والطرائق الجديدة المستغلة في إعادة بناء المبادئ التعليمية لتعليمية النحو العربي كمهارة لغوية صعبة المنال.

"اللغة" وسيلة للتبليغ والتواصل ذات أهداف نفعية في ظل مفهوم القصديّة، إن ذهب القصد، انمحى الهدف فتجمدت الوسيلة: "اللغة".

هذا المعطي الاستفساري، التحليلي خلافًا لغيره من الاستفسارات والأسئلة الكثيرة والمتعددة يدفع بنا إلى الوقوف عند نوعية هذا الكتاب قائلين: ما النوع الذي يدخل تحته هذا المؤلف"الهلوسة في اللغة والأدب" ؟

2- **أفكار ومضامين الكتاب:** القول بأفكار الكتاب ومضامينه يدفعنا للحديث عن نوع الكتاب، ونوع الفن أو العلم الذي ينطوي تحته هذا المؤلف.فنقول أن الكتابة كمفهوم إبداعي هي فن عند أفلاطون وهي عنف في حق اللغة عند نزار قباني وهي تفكير عميق عند صاحب البؤساء "فيكتور هيجو"، واستدلالات غامضة عند راسين وهي بحث عن الآخر عند لعرج وسيني - خاصة في مؤلفه - شرفات بحر الشمال. والكتابة منطق وواقع عند مصطفى لشرف، وحب مقهور في ثنايا جسد هزيل عند "أحلام مستغانمي" وهي ترجمة لأعمال مختصين إجلاء عند محمد يحياتن والكتابة أيضا تطهير للنفس والذات عند "السعيد بوطاجين"، وهي بحث عن الحقيقة عند مولود معمري، وهي جمع أطراف العلوم والاختصاصات عند "صالح بلعيد"، والكتابة بحث واستقصاء، بناء وإنشاء و بالتالي تغيّر مصائر واتجاهات العلوم عند "سوسور" و كل من جاء بعده من أتباعه.

فما نوع مؤلف "عمر بورنان" ؟

أدرك على غرار إطلاعي البسيط أنّ الخرافة كنوع أدبي قد اشتهر كثيرًا في فرنسا مع "لافونتان" تحت مصطلح "Les fables"، إلاّ أن الذاكرة العربية في ميدان الأدب القديم أو التراثي تحمل في جعبتها مفهوم الخرافة واللّغة في جلباب ألسنة الحيوانات عند كلّ من الجاحظ وابن المقفع، نوع الكاتبات الّتي جاء للتعبير عن مفهوم الحيلة بكل أنواعها: الهزلية، الحقيقية وكذا

التعبير عن الرغبة في القول وبالتالي تحليل الوضعيات بما تشتهي النفوس المقهورة.

عاش الجاحظ في العهد العباسي الثاني (775م – 868م)، كتب معبّرًا عن زمانه وأحواله، وحدّد مبادئ البيان وأسس عندما لمس أنّ الفرد العربي قد عجز عن بناء مبادئه السليمة، فأراد مثله مثل علماء عصره توضيح المسألة العالقة، فأتاها شرحًا وتوضيحًا، مستغلاً في هذا الكثير من الحواشي خاصة أمام المفاهيم والمعطيات المستعصية في قالب فكاهي أحيانًا كثيرة نحو ما نجده في مؤلفه "البخلاء" والملاحظ لأدب وأعمال الجاحظ يشعر أنها بدأت مستعيرة توقيع عبد الله ابن المقفع الّذي استغل ألسنة الحيوانات لتعبير عن آفات عصره، وترجمة غرائب الدّنيا لأبناء جيله، وأبناء جلدته آنذاك دائمًا ففيما أفادنا كتاب الهلوسة في اللّغة والأدب ونحن في منتصف القرن الواحد والعشرين، عصر الشريحة والشفرة الإلكترونية السابحة في الفضاء أكثر من تواجدها على سطح البسيطة ؟

هذه التساؤلات العديدة، تدفع بنا مرة أخرى للتنظير لموضع المؤلف في أي البحث عن الخانة الّتي نضع فيها مؤلف "الهلوسة في اللغة و الأدب" ؟ هل في خانة الفنون القصصية، أم خانة الروايات أم في ركن الخرافات؟ أم في صفوف الأعمال العلمية؟ وإن كان الأمر كذلك، فأين نضع مؤلفات وكتابات السعيدة بوطاجين الساخرة، و"بورديو" الاجتماعية، و"جون جاك" التربوية الاجتماعية وكذا كتابات "السعيد يقطين" النقدية لفنيات وتقنيات الرواية ؟

هل هو في صنف الأدب ؟

تقول الدراسات أنّ الأدب عنف منظم يرتكب ضدّ اللّغة الاعتيادية حسب الباحث اللّساني الشكلاني الروسي "رومان جاكبسون"، الأدب ليس دينًا زائفًا أو علم نفس، أو علم اجتماع بل هو تنظيم محدد حسب ثائر ديب، والعمل الأدبي ليس حاملة أفكار، أو انعكاس للواقع المادي، ولا هو تجسيد لحقيقة متعالية،

إنّه واقعة مادية خارجة عن المألوف حسب "تيري أيڤلتون"، والأدب هو اللّغة المختلفة بالضرورة القصوى عن أشكال الخطاب الأخرى؛ لأنّها "اللّغة"هي الّتي تشوّه الاعتياد لتتكثّف وتلتوي عليه وتتداخل وتتطاول حتى تصبح غريبة وتنسج مفهوم التغريب إلى جانب مفهوم العنف حسب الشكلاني الروسي "أوسيب بريك"، فأين مؤلفك من هذا ومن كلّ هذه الأعمال إن وضعناه في صنف المؤلفات الأدبيَّة؟

هل هو كتاب علمي؟ بحكم أنّه يحمل بعض سمات الكتب والمراجع العلمية نحو ما هو عليه الحال في مسألتي: التهميش والفهرسة لبعض الأجزاء من الكتاب لماذا؟ لأنّ العلم والمؤلفات العلمية القائمة عليه هي مجموعة فرضيات تقوم بأضدادها وتحليلات معطياتها التجريبيّة التطبيقية لبلوغ غاية الهدف والنتيجة.

والملاحظ أنّنا لا نكتب في أغلب الأحيان في انتظار النقود (ج نقد)، ولا نكتب مؤلفًا أو ورقة في انتظار وقعها على الآخر وإنمّا نكتب في رأي رغبة في التغيير ومحاولة إقناع الآخر بالفكر الجديد وهذا ما حاول فعله الجاحظ مع أبناء عصره.

إذا أردنا البقاء والخلود فلابد أن نكتب من خلالنا، للتعبيرعن آلام غيرنا عبر كتاباتنا حتّى نحمل مرهما علاجيا لغيرنا دائما. فهل سنبتعد عن مقصودنا؛ إذ جعلنا مكتوب "عمر بورنان" في إطار مفاهيم المؤلفات الّتي أتت للبحث عن الآلام في وسط صخب اللاصدق ؟

تأتي هذه الأفكار مجرد آراء عن مظامين الكتاب ومحتوياته، على الرغم من أنّ كلّ الدراسات القائمة على دراسة التراث العربي تبقى تعرف صعوبات كبيرة جدًا في توظيفها في زماننا هذا، لذا أرى أنّ ما تناقله الأجداد من سيرة وقصص وأيام وحكمة يحتاج إلى بعض التكيفات، أهمّها ما سنعرضه من أراء حول هذا الكتاب:

2- **أراء في الكتاب:** نحملها في ثلاث اتجاهات

1- الاتجاهات اللغوية.

2- الاتجاهات الفنية.

3- الاتجاهات التربوية.

ومنه نقول: حمل مؤلف الهلوسة في اللّغة والأدب كثير من الاضطراب في المعطيات التقنية والفنية، وكيفية توظيفها على غرار ما أشرنا إليه في بداية هذه الورقة نحو:

1- ذكر أسباب وظروف تأليف الكتاب كأمر يمكن الاستغناء عليه في الكتابات الحديثة والعصرية.

2- جزء مميزات الكتاب: كان بإمكان الكاتب الاستغناء عنه أيضا؛ لأنّ مميزات المؤلف تكتشف من قبل القارئ المطلع.

3- تزويد الكتاب أو المؤلف بعمليتي: التهميش، الفهرسة ومحاولة إخراجه من خانة الكتابات الهزلية إلى خانة الكتابات العلمية، وفي هذا ضرورة تنظيرية لهذا النوع من هذه المعطيات في عصر أصبح التخصص ضرورة قائمة بذاتها.

4- تحميل المواضيع اللّغوية البحتة مفاهيم الأبعاد القصصية الحاملة بدورها لأبعاد إرشادية تثقيفية، وفي هذا أيضا كثير من التحامل على مفهوم المناهج العلمية التعليمية والتربوية البيداغوجية في الوقت الراهن في تحديد أنواع العلوم عامة، وأنواع العلوم اللّغوية خاصة والأنواع الفنية الأخرى المستوردة في ثنايا هذا المزج نحو فن القصة، الحكاية والرواية.

وعليه أقول إنّ التراث يعاني مشاكل عويصة في العصر الحالي على المتفطن الإلمام بها، خاصة تلك المرتبطة بـ:

1- الجانب اللغوي: بحيث يجب إعادة صياغة التراث بلغة العصر الحاضر؛ لإقامة الجسر بينه وبين جمهور الطلبة والقرّاء غير المتخصصين في اللّغة

والتاريخ، أمّا من شاء الإطّلاع على الأصل، فله ذلك رغبة دائمًا في إعادة الحوار بين شبيبة الثلث الأخير من هذا القرن، وبين مكنون الخزائن العربية.

وهذا معناه علميا تبسيط المصنفات القديمة ذات اللّغة القوية، ما أمكن التبسيط في المفردات والتراكيب تيسيرا لقراءتها وتشويقًا لمطالعتها، على أن تصاغ المصنفات ذات اللّغة الركيكة صياغة جديدة، تعيد لها الصحّة والعافية، لكسب المطلع عليها استقامة لسانه وسلامة تعابيره وتفكيره بالنتيجة، فهل فكر صاحب مؤلف الهلوسة في اللّغة والأدب في كل هذا، وهو يُحاول إرجاعنا إلى مؤلفات الجاحظ، ولغة ابن المقفع في بناء وتأسيس مبادئ نحوية ولغوية أصبحت الوزارات المعنية تشتغل عليها سنوات طوال لتأسيس مناهج، طرائق ومقاربات جديدة؛ لإخراجها من قالبها المقياسي المعياري وإدخالها في مفهوم المهارات اللّغوية السهلة الاكتساب ليبقى مفهوم التداول اللّغوي السريع المطابق لتصانيف الوقت الراهن قائما.

2- **الجناب الفني:** ضرورة إخراج الكنوز التراثية إخراجًا عصريًا في التبويب، والتحرير وصناعة الإنشاء، وكذا في الرسم والحجم والحرف، فهل تبنى المؤلف هذا في كتابه الّذي يُحاول إقحام مستوى المضمون ومستوى اللّغة في كثير من اللاتجانس في بناء الجانب الفني للكتاب وهو يُحاول ربط مفهوم السخرية في ظلّ المفهوم العلمي، الدقيق أم لا ؟

3- **الجانب التربوي، التعليمي:** المؤلف بأهدافه والمؤلف الناجح هو ذلك الّذي يراعي سيكولوجية الطالب ويسهم في توجيه الشبيبة في ميدانه، فهل سيستفيد الطالب المبتدئ والطالب الباحث في تأسيس معطياته؟

خاتمة: وعليه نقول إنّ مؤلف "عمر بورنان" قد جاء كمحاولة طامحة راغبة في تطويع التراث لجعله في متناول جميع الفئات المتعلمة من جهة، وفي خدمة أهداف التربية والجيل الصاعد من جهة أخرى.

تحت منظور يراه سليم. فنحن نشكر له هذا المولود الجديد الّذي ولد تحت أجنحة مخبر الممارسات اللّغوية التابع لجامعة مولود معمري، فهنيئا لنا، وهنيئًا للمؤلف الواعد الذي نتمنى أن يرتقي ليصبح أدبه أو كتاباته عالمية، بحكم إنّ الآداب العالمية هي تلك النصوص التي اخترقت الزمان حين نالت الإجماع الكلي على عظمتها واستمراريتها مهما تغيرت عقارب الساعة.

قراءة لكتاب "الهلوسة في اللّغة والأدب"

لـ" عمر بورناق"

قراءة للأستاذة: مكلي شامة

قراءة في العنوان. "الهلوسة في اللّغة والأدب"، عنوان مغرٍ على حد تعبير الكاتب، ويحث القارئ على قراءته، بل ويوقظ فيه حس الفضول لمعرفة ما طبيعة هذه الهلوسة، وما يعني بها الكاتب؟ وهذا- بحق- ما انتابنا عند تصفحه، فما هذه الهلوسة ؟ وماذا يعني بها الكاتب.

لكن قبل تناول ذلك والدخول في تفاصيل هذا الكتاب، نشير إلى أنه كتب بأسلوب مشوّق، أسلوب يذكرنا بعمالقة النقد العربي القديم، أمثال ابن جني، ابن قتيبة، الجاحظ...الخ وبتعبير دقيق، كتب بأسلوب يشبه في جودته، أسلوب عصور كانت اللغة العربية في أوج ازدهارها، والكتّاب في أقصى درجات الذكاء.

العنوان – كما تعود الدرس السيميائي أن يصفه- أول عتبة نلج من خلالها إلى النص، وقد يهيئ القارئ لقراءة النص أو الكتاب، إذا كان اختصارا له، كما قد يكون مضللا له، في حالة ما إذا كان معناه الظاهر غير معناه المضمر، لذلك نبدأ في قراءة هذا الكتاب انطلاقا من عنوانه.

عندما رحنا نبحث عن معنى الهلوسة، في المعاجم والقواميس العربية، كان لزاما علينا أن نرجع إلى المصدر اللغوي الذي اشتقت منه هذه الكلمة، فاعتقدنا أنها اشتقت من: "هلوس يهلوس هلوسة"، غير أنّنا صدمنا بعدم وجود هذا الاشتقاق بتاتا في المعاجم العربية، ووجدنا أيضا أن كلمة (هلوسة) هي مصطلح ينتمي إلى علم النّفس. أثناء ذلك برّرنا هذا الاستعمال، لهذه الكلمة،

برغبة المؤلف في أن ينبّهنا إلى أن هذا الاستعمال، خطأ شائع، وعلينا أن نبحث عن الأصل الّذي يجب استعماله. لأنه عودّنا على استعمال ما لا يُستعمل، كاستعماله لكلمة "صخش" التي تعتبر من تقليبات الجذر "ش خ ص"، غير أن هذه الكلمة غير مستعملة أيضا في اللّغة العربية.

انسقنا وراء هذا الافتراض ورحنا نبحث عن كلمات قريبة من كلمة (هلوسة) قد تكون هي الأصل. فبحثنا في مادة "هَوَسَ" (بالتحريك) فوجدنا أنّها تعني: "طَرف من الجنون. في حديث أبي الأسود: فإنه أهْيَسُ أَلْيَسُ ... والتّهوُّس: المشي الثقيل في الأرض اللّيِّنة. وهَوِسَ الناس هَوَسًا: وقعوا في اختلاط وفساد، وهوِسَت الناقة هَوَسًا، فهي هَوِسَةٌ: اشتدت ضَبَعَتُها"[1]

كما نجد أن كلمة "هلس" قريبة من هذا المعنى فـ"هلس: الهَلْس والهُلاسُ: يشبه السُّلال، وفي التهذيب: شدة السُّلال من الهُزال. ورجل مَهْلُوسٌ، وهَلَسه الداء يهلِسُه هَلْسًا: خامره ... والمَهْلُوس من الرجال: الذي يأكل ولا يُرى أثرُ ذلك في جسمه. ورجل مهْلوسٌ: قليل اللحم لازق على العظم يابس، وقد هُلِسَ هَلَسًا. ورجل مَهْلوس العقل أي مسلوب."[2] و "هَلَسَ: يهْلِسُ، هَلْسًا الداءُ، أوِ الحُزْنُ فلانًا: هَزَلَه. ذهَبَ برُشدِه، فأخذ يَهْذي."[3] أما "هُلِس: (بالبناء للمجهول) هلاسًا الرجلُ: سُلَّ – سُلِبَ عقْلُه – أكلَ ولا يُرَى أثرُ الأكْلِ في جسمه."[4] أما "هَلْسٌ: ... هو يشْبه السُلالِ – الدِّقَّة في الجسم – الهذَيان من شدّةِ المرَض أو الحُزن."[5] وفي الأخير نجد في القاموس الجديد للطّلاب كلمة "هَوَسٌ" التي تعني "طرفٌ من

1– أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ابن منظور، لسان العرب، المجلّد السادس، دار بيروت، 1968، " مادة هوس"، ص252.

2– المصدر نفسه، مادة "هلس" ص249.

3– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4– المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

5– ابن منظور، لسان العرب، مادة "هلس"، ص249.

الجنون وخفّة العقل"[1]. وبعد هذا هل كلمة "هلوسة" مشتقة من كلمة "هوس" أم "هلس"؟ مع اشتراك الفعلين في معنى الجنون وذهاب الرّشد.

مدخل التأليف: لندع الآن مسألة العنوان وندخل في مسألة أخرى وهي مسألة إبداع هذا الكتاب. فقد حاول المؤلف أن يدخل إلى عالم الإبداع الأدبي أو النقدي من الباب الذي دخل منه العباقرة في الآداب العالمية، ألا وهو "الجنون"، فوسم كتابه بعنوان "الهلوسة في اللّغة والأدب"،من جهة، وتناول،من جهة أخرى، أول عنوان من كتابه – بعد تقديم أسباب وظروف تأليفه ومميزاته- هو "بداية الهلوسة"[*]، فبعد أن دخل حديقة المجانين واجتاز امتحان القبول فيها، بدأ يسرد علينا هذه الهلوسات.

ونجد الكثير من الباحثين من ربط بين العبقرية والجنون، فالكاتب الفرنسي "أندريه موروا"، سُئل يوما: هل جميع الروائيين مجانين أو عصابيون؟ فأجابه: لا، لكن الأصح أن نقول كلهم كانوا سيصبحون مجانين أو عصابيين لولا أنهم أصبحوا روائيين، ولولا أنهم نجحوا في هذا الفن لما نجوا من مرض العصاب. فالعصاب – برأيه- هو الذي يصنع الفنان وهو الذي يشفيه من انفعالاته. والعصاب أو الجنون أيضا هو الدائرة التي تجمع بين الإبداع والمرض، أو بين العبقرية والجنون.

والأدلة التاريخية في هذا الشأن كثيرة، فالشعراء والمفكرون الأوروبيون أمثال: بودلير، ورامبو، وآرتو، وميشال فوكو، وكافكا ... الخ منهم من جنّ أو انتّحر، ونيتشه قيل إنه جن جنونا كاملا في أواخر حياته، وظل في تلك الحالة قرابة أحد عشر (11)عاما. وكما قال الطبيب "لولوت" – الذي كتب السيرة الذاتية المرضية لكل من سقراط وباسكال- إن العبقري شخص

1- القاموس الجديد للطّلاب، معجم عربي، مدرسي، ألفبائي، ص1293.

* – نعتقد أن هذا العنوان يناسب ما جاء في العنوان الذي جاء بعده وهو "أصدقك القول فاصدقني الاستماع" والعكس، لذلك نعتبر أن العنوان "بداية الهلوسة هو العنوان الذي ابتدأ به الكاتب كتابه.

ممسوس أو مسكون من الداخل من قبل الشيطان، وهذا الهوس أو الجنون هو الذي يجعل منهم شخصيات استثنائية مهووسة بشيء لا تدري ما هو؟ فحالة الإبداع هي حالة هوسية يبلغ فيها التهيج والانفعال حده الأقصى.[1]

غير أن العلاقة القائمة بين الجنون والعبقرية، علاقة نسبية، فليس كل مجنون عبقري، ولا كل عبقري مجنون، كما أنه لا يجب أن ننظر إلى الجنون الإبداعي نظرة سلبية، بل يجب أن ننظر إليه نظرة إيجابية لأننا نجد فيه سمة "الحضور" و"الإنتاج" عكس الجنون السلبي، الذي لا نجد فيه سوى "العزلة" و"الغياب"، وإن كان المؤلف قد وصف المجانين في كتابه بـ"الإنسانية" حين جعل المجنون يرأف بالحجر ويشاركه حزنه وخوفه من الموت ويواسيه ويجعله خير صديق حين قال: "وتأكد أن حجرا خير من بشر"[2]

وعلاقة الجنون بالإبداع الأدبي نجد آثارها أيضا في التراث العربي القديم، فقد كانت العملية الإبداعية تفسّر بالجنون، ويُقال إن فلانا عبقري نسبة إلى واد "عبقر" الكائن في الجزيرة العربية – حسب آراء البعض- ويُقال أيضا إن هذا الوادي تسكنه شعراء الجن منذ زمن طويل، وكل من أمسى ليلة فيه جاءه شاعر من شعراء الجن ولقّنه الشعر، لذلك نُسب لكل شاعر من شعراء الجاهلية شاعر جني يلقّنه الشعر وصار يقال لكل شخص حاد الذكاء عبقري لأن الشعر كان مقياس الذكاء في العصور الجاهلية:

فـ"لافط بن لاحظ" صاحب "امرئ القيس".

و"هبيد بن الصلادم" صاحب "عبيد بن الأبرص".

و"هاذر بن ماهر" صاحب "النابغة الذبياني".

1- ينظر، هاشم صالح، بين العبقرية والجنون،
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=1838

2-عمر بورنان، الهلوسة في اللّغة والأدب، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، 2010، ص22.

و"مدرك بن واغم" صاحب "الكميت".

كما نجد هذا التفسير (للعملية الإبداعية) أيضا عند اليونان، فهوميروس – الشاعر- في مطلع ملحمته "الإلياذة"، نسب قول الشعر إلى "ربة الشّعر" قائلا:

ربّة الشّعر عن أخيل بن فيلا   أنشدينا وارو احتداما وبيلا*

ومن تكون ربّة الشّعر هذه إلاّ "إلهة الشّعر" أو "جنية الشعر".

مناقشة بعض القضايا المطروحة في الكتاب: لقد أثار الكاتب، في كتابه هذا، مجموعة من القضايا، قد خطر بعضها ذات مرة على بال أحدنا وأخرى لم تخطر لنا على بال. قدم مجموعة من القضايا المتعلقة بعضها باللّغة، وبعضها الآخر بالأدب، ومنها أيضا قضايا متعلقة بالقيم الإنسانية، حتى وكأن قارئ هذا الكتاب سيكتشف أن المؤلف، لا محالة، يقرأ كثيرا لابن جني وللجاحظ بصفة خاصة إلى درجة تأثره بهما، ويبدو هذا التأثر في النقاط التالية:

- استعمال الأسلوب المرسل والمرن في الانتقال من موضوع إلى آخر.
- القدرة على التصرف باللّغة العربية، وهي قدرة تنم عن رصيده اللّغوي.
- استعمال أسلوب التهكم والسّخرية، وذلك عند تناوله لبعض القضايا المعرفية أو التعاملية.
- استعمال أسلوب "الاستطراد" والانتقال من موضوع إلى آخر، ثم العودة بالاستدارة إلى ما أسلف في تناوله من قبل، مستعملا أسلوب الفكاهة.
- استعمال الكلام المسجوع في بعض المواضع من كتابه، كقوله على سبيل المثال: "أيّها الشيخ الجليل، والقطب النبيل ذو الوجه الجميل، والقد الأسيل، والخد الوبيل..."[1]
- استعمال أسلوب السرد والحكاية.

* – هذا البيت مأخوذ من ترجمة "بطرس البستاني" إلياذة هوميروس.

1– عمر بورنان، المرجع السابق، ص14.

وربّما يلاحظ المتتبع لخصائص الكتابة عند "عمر بورنان" أنّها نفسها عند الجاحظ، وهذا ما يدل على أنّه متأثر جدا به، غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هو: لماذا هذه الطريقة في الكتابة؟ مع ما علمناه من أن هذه الطريقة في التأليف لم تعد مستساغة في العصر الحديث، ويصفها النقاد المحدثون بالطريقة اللامنهجية، لأنّها لا تنظم الفكر بل تشتّته. فما القصد من هذا؟ أهي دعوة من الكاتب لإحياء التراث حتى في طريقة التّأليف؟ أم أنها رغبة في تقليد عملاق من عمالقة النقد العربي القديم وهو الجاحظ؟

بعد هذا سنحاول دراسة بعض القضايا التي تناولها الكاتب في كتابه.

– أوّلها هي قضيّة "التطاول على العلماء"، فقد تصورنا أن يكون الكاتب قد تطاول – بالفعل- عليهم بانتقادهم انتقادا لاذعا، خاصة منهم علماء اللّغة والنحو، في حين أننا لم نجد في كتابه هذا سوى موقف واحد، الذي يظهر حين خطّأ سيبويه في قضية من القضايا اللّغوية حين قال إنه جمع بيت الشعر على "بيوت"، وهذا مخالف للشائع.[1]

وربّما تعود فكرة التهكم والتطاول على العلماء – أيضا- إلى الجاحظ، حين تهكم بالخليل بن أحمد الفراهيدي، رائد علم العروض، حيث قال فيه: "العروض علمٌ مردود، وذهبٌ مرفوض، وكلام مجهول، يستكدُّ العقول، بمستفعل وفعول، من غير فائدة ولا محصول".

– والقضية الثانية التي نناقشها هي الأقوال التي قالها عن الجاحظ، فقد مدح ذاك الناقد الكبير بكلام جميل حين قال عنه إنه "حاول أن يعرف البلاغة تعريفا دقيقا، مع أن هذا العلم لم يكن في عصره واضح المعالم"[2] لكننا نقول: صحيح أن الجاحظ كان له دور كبير في تأسيس مبادئ علم البلاغة، إلاّ أنه وقع في بعض المزالق، لأنه، كما حاول أن يعطي للقارئ مفهوما دقيقا للبلاغة،

1– عمر بورنان، الهلوسة في اللّغة والأدب، ص62.

2– المرجع نفسه، ص87.

فإنه خلط عليه المسألة أيضا، ويظهر ذلك حين خلط بين مفهوم الخطابة ومفهوم البلاغة. حيث يرى مؤرخو علم البلاغة أن الجاحظ ربط بين هذين المفهومين، وذلك ما ظهر في كتاباته حيث ذكر أن" سهل بن هارون كان شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة، ومقومات البراعة فيها: من الجهارة في الصوت والحلاوة والفخامة في اللفظ وجودة اللهجة[1]، وكل هذه الأوصاف والمقومات يوصف بها الخطيب وليست البلاغة كـ "علم". لأن كثيرا من النقاد السابقين من فهم مصطلح "الفصاحة" على أنه هو "البلاغة" لكن البعض يقول أن الفصاحة صفة للمتكلم والبلاغة صفة للنّص، ويبدو أن الجاحظ كان من الفريق الأول، والدليل على ذلك ما وصف به المأمون.

ويقول الجاحظ في نفس المسألة "وما تكلمت فيه الخطباء ونطقت به البلغاء أكثر من أن يبلغ آخرها ويدرك أولها"[2] فيجعل النطق مرادفا للتكلم والشخص البليغ مرادف للمخاطب. كما أنه جعل مفهوم الفصاحة مساويا لمفهوم البلاغة في قوله: سئل أحد أطباء الهند الذين اجتلبهم يحيى بن خالد البرمكي في عهد الرشيد: ما البلاغة عند أهل الهند؟ فقال الطبيب: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها، ولم أعالج هذه الصناعة فأثق في نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها، قال أبو الأشعت: فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة، فإذا فيها :" أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيبُ رابط الجأش، ساكن الجوارح، قليل اللّحظ، متخَيِّر اللّفظ، لا يكلّم سيّد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السّوقة"[3]. ألا يبدو كلام

1- ينظر: عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ج1، مكتبة الخانجي، القاهرة ط7، 1998، ص91.

2- عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج3، دار الجيل، بيروت، ب ت، ص66.

3- الجاحظ، البيان والتبيين، ص92.

الجاحظ هنا أقرب إلى شروط الخطيب منه إلى تعريف البلاغة!؟ أضف إلى ذلك أن الجاحظ أعطى مفهوما آخر للبلاغة يقترب إلى حد كبير من الخطابة اليونانية، حين قال أنها "البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة وإظهار ما غمض من الحق وتصوير الحق في صورة الباطل"[1]

وأشار المؤلف أيضا إلى قضية أخرى تناولها الجاحظ في كتبه، وهي قضية "التواصل" التي شغلت الكثير من الباحثين إلى يوم الناس هذا، كونها الأساس في العلاقات الإنسانية بل الحيوانية أيضا، فالجاحظ لا يستطيع أن يتصور خطابا لغويا، أو غير لغوي، لا يكون الفهم والإفهام أساسه، ولا يعدّ الخطاب خطابا ما لم يحتل السامع فيه "المركز" في العملية التواصلية، وما لم يخضع إلى مجموعة من الشروط التي تعتبر أساس الكلام البليغ حين قال:" وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه ، وإذ كان المعنى شريفا واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ، ومنزها عن الاختلال مصونا من التكلف ، صنع في القلب صنع الغيث في التربة الكريمة"[2]

غير أن الإشكال الذي يطرحه المؤلّف هو: من يصنع دورة الخطاب، أهو المتكلم أم المستمع؟ أم كلاهما؟ وحاول الإجابة عن هذه الإشكالية في موضعين في كتابه، وقدم إجابتين مختلفتين.

الموضع الأول كان في عنصر "هلوسة في اللّغة"، حيث قال المؤلف إن اللغة بنيت على الإيضاح، والبيان والتبيين- وهو يوافق في ذلك الجاحظ- إذ المقصود منها التواصل وتبادل الأفكار، ثم استشهد بقول سيبويه - في مسألة التقديم والتّأخير المتعلقة بعلم المعاني- : "... إذا قلت: عبد الله منطلق، تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر..."[1]، ثم يقول إن الشاهد في هذا القول أن الكلام يوجه لإفادة

1- المصدر نفسه، ص88.

2- الجاحظ، البيان والتبيين، ص61.

المستمع وفقا لما يخزنه من معلومات في ذهنه، وحسب طبيعته الفكرية والمعرفية وبذلك يكون هذا المستمع هو موجه الخطاب وعليه فهو موجّه المخاطب وكنتيجة وصل إليها المؤلف أن المستمع هو الذي يحدد وجهة الخطاب.

والموضع الثاني الذي يتناول فيه المؤلف هذه المسألة هو في عنصر "بعر كبش الجاحظ وأثره في الدرس اللغوي" حيث أشار إلى أن ما توصل إليه الجاحظ، في أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجريين، هو نفسه ما تناولته الدراسات اللسانية الحديثة، بمعنى أن الجاحظ ،الذي يمثل العرب، هو السبّاق إلى هذه المسألة وليس الغرب واستشهد بقوله (الجاحظ) المأخوذ من كتابه (البيان والتبيين) فيقول: "...والمُفْهِمُ لك والمُتَفَهِّمُ عنك شريكان في الفضل، إلا أن المُفْهِمَ أفضل من المُتَفهِّم، وكذلك المعلم والمتعلم"[32] وهنا يُرجع الفضل في نجاح العملية التواصلية إلى المتكلم أو المُفْهِمْ (المرسل). فهل حُلّت بهذا الشكل إشكالية من يصنع الخطاب؟

يبرّر الجاحظ اعتماده أسلوب الاستطراد في كتاباته بأن المتلقي بحاجة إلى ذلك، كي لا ينقطع التواصل بينهما، بالإسهاب في الموضوع الواحد حيث يقول: "قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطا لقارئ الكتاب، لأن خروجه من البال إذا طال ببعض الكلام كان أروح على قلبه وأزيد في نشاطه."

ونحن نشير إلى هذا في هذا الموضع لنقول بأن مؤلف "الهلوسة في اللّغة والأدب" اهتمّ هو أيضا بمسألة المتلق، لكن أي متلقي؟ إنّه المتلقي الكسول الذي يريد إيجاد المعلومات والشروحات دون عناء، لذلك لجأ المؤلف إلى الاختصار والاكتفاء بالإشارة عند حديثه عن بعض القضايا اللّغوية أو الأدبية، ليحيل القارئ إلى المصدر الذي أخذ منه المعلومة، ليعود إليه في حين أراد

1- عمر بورنان، المرجع السابق، ص60-61.

2- المرجع السابق، ص82-83.

الاستزادة في المسألة، ويظهر ذلك مثلا في قوله: "غير أن فكرة الإيضاح... وإذا قيل: كلم هذا هذا، وكان المقصود إنسانين نُظر إلى حركة يد المتكلم... وهذا ما فصل فيه ابن جني في "باب الإعراب" فراجعه في موضعه ففيه فوائد كثيرة إن شاء الله."[1] وفي مواضع كثيرة من الكتاب أيضا.

هذا باختصار بعض ما توصلنا إليه بعد قراءة الكتاب، الذي أثار مجموعة كبيرة من القضايا، تعتبر جيدة، كطرح، وتستدعي منّا التفكير في أمور كثيرة مررنا علينا مرور الكرام ولم ندركها حق الإدراك، من أمثلة ذلك الأمراض اللّغوية التي أشار إليها الجاحظ في زمنه، ولم يفكر أي باحث عربي - في زمننا- في دراستها إلاّ بعد أن درسها الغرب.

1- عمر بورنان، الهلوسة في اللّغة والأدب، ص61.

ما يتراءى وما يتوارى

في كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب"للأستاذ "عمر بورناق"

قراءة الأستاذة كريمة سالمي

قراءتي لهذا الكتاب قراءة انطباعية، أردتها كذلك تجاوزا لأي قيد منهجي يمكن أن يضيّق عليّ مجال التفكير والتأويل، وهي فرصة للابتعاد عمّا ألفناه في المجال البحثي والأكاديمي.

هذا الكتاب يصوّر فيه المؤلف عالمه الداخلي، ذلك الفضاء المغلق الذي أثّر عليه إلى درجة الهذيان، ويدعونا للدخول فيه لنشهد على معاناته من واقع قهره وأفقده قواه وأدخله عالم الجنون كما يقول: «ألّفتُ هذا الكتاب لمّا بدأت قواي العقلية تنهار، وقدراتي الفكرية تتراجع إلى الوراء خطوات مُعتبرة» ص 09.

والكتابة في مثل تلك اللحظات التي يمتزج فيها الهذيان بصدق المعاناة تتحوّل إلى طريقة علاجية (Une thérapie)، تجعل المؤلف في موقف التداعي وشبه اللاوعي الذي يضفي به إلى عمق الأعماق، وأعتقد أنّ هذا ما حدث لمؤلف "الهلوسة في اللغة والأدب".

جاء عنوان هذه القراءة مطابقا لنظرة المؤلف للواقع، كما بدت لي طبعًا، فيما يتراءى له منه وما يتوارى. ويتمثل لي محتوى هذا الكتاب عموما في نقد ورفض عالم الفكر والعلماء، هذا العالم المقهِر للحرية الفكرية والعاطفية، والذي لا يُنتصر عليه، في نظر المؤلف، إلا بخلق عالم نقيض له، اختار أن يواجهه منه. وفكرة النقيض يُجسّدها قول المؤلف: «كما اختصرتُ ما يجب فيه التفصيل، وفصّلت ما يغني فيه الاختصار، فشرحتُ الواضح وأبهمت الغامض» ص 11، وغير ذلك من الأقوال.

تأخذ هذه المواجهة طابع الصراع في اتجاهين: صراع مع النفس وصراع مع عالم اللغة والأدب الذي ينتمي إليه المؤلف، وهو من العوالم الصغرى التي تمثل هذا العالم الكبير، عالم الفكر والعلم. وهذا العالم المصغّر، عالم الأفكار، قائم في صلبه على الفهم والإفهام، وهنا مصدر معاناة المؤلف التي يصوّرها لنا في قوله:

«ثمّ لما رأيت أناسا يعيشون في عصر واحد، وفي مكان واحد، ولا يمكن لهم الاتصال بينهم ويتعذر فهم بعضهم عن بعض لاختلاف العالم الوجداني الذي يعيشون فيه... » ص 08، ويقول كذلك: « ولكن من يفهم رسالتك ومن يحاول أن يفهم!» ص 19. كما يضمّن إهداءه فكرة الفهم والتعبير من خلال الصمت فيقول: «إلى الذين تكلّموا فأفهموا، وصمتوا فعبّروا، فأراحوا الناس واستراحوا منهم»، الإهداء الذي يترجم عادة هذا الاعتراف والإعجاب بمن أخذناهم كقدوة. والتعبير من خلال الصمت، أي دون إحداث الفوضى، خاصية النفوس الهادئة الميالة إلى الحلم والسلم.

ومما يتراءى لنا في علاقة المؤلف بالعالم الذي يصوّره لنا استفزازه لكل من القارئ والعالم ثم الناقد، يتذمر أولا من ذلك القارئ الذي يأخذ الأمور على ما تبدو عليه لا على ما هي عليه بالفعل، وذلك بانبهاره بكتاب من مجرّد عنوانه، ورأى أن يلقّنه درسا حيث يقول: «وهنا أكون سعيدا أنّي أعطيته درسا قاسيا يتعلّم من خلاله كيفية شراء الكتب» ص 9.

هذا، ويمكن تصوّر أن أساس معاناته هو أنه لم يفْهَم الوضع القائم، ولم يُفهَم كما أراد، ولا يَفْهم من لا يعمل على فهم الأشياء في حقيقتها مثل ذلك القارئ الذي ينطلق من مجرد عنوان، ويُحيلنا هذا إلى فكرة الحكم على الأمور من خلال مظاهرها في حين أنّها حاملة لحقائق نغفل عنها فيقول: « ولا يصل إلى المعلومة من خلال العنوان فقط! » ص 10.

ويطمح المؤلف إلى أن يجد كتابه الممثِل لـ"عالم الجنون" مكانا في "العالم الطبيعي" الذي يرفضه ويريد الخروج منه، إذ يقول: « وهو طموحي في أن يوضع عنوان كتابي هذا مع عناوين كتب أخرى في المكتبات الجامعية، والوطنية » ص 09.

وممّا يتراءى أيضًا ما يصرّح به من رغبة في استفزاز رجل العلم أو الناقد، واعتبر ذلك هدفا أسمى من الهدفين الأوّلين، ويقول متحدثا عن الناقد: « فيرى أنّ هذا الكتاب ليس من الكتب التي يزداد ناقدها رفعة بين أهل العلم لكثرة سقطاته، وإنّما الأعمال القيمة هي التي تجلب لناقدها رفعة وشهرة، فيرمي أوراقه التي بذل جهده في تحريرها » ص 10، ويستفزه بكلام آخر بعد أن جعله يُجهد نفسه في قراءة كتابه بأن يجعله هذه المرة يقرأ سخافاته فيضعه بين أمرين: إمّا أن «يرمي أوراقه التي بذل جهده في تحريرها» ص 10 وإمّا أن ينتقده، لكن حينئذٍ يقول: «وعندما حاول نقدي رفع عني قلم نقده دون أن يشعر أنّ ذلك من البركات التي رزقني الله بها» ص 10، ويواصل استفزازه قائلا: « إذ الهدف من الكلام هو أن أشعرك بأنك تقرأ هذيانا » ص 12.

ومع الإحساس بالانتصار على كل من القارئ والناقد يُعلن تطاوله على العلماء بقوله: «التطاول على العلماء ونسبتهم إلى الجهل والسهو والخطأ» ص 11. ويتلذّذ بهذا الانتصار ويظهر ذلك في: «إنّي لأحس بأقصى درجة الذكاء لتميزي بهذه الصفة» ص 12. هنا تتراءى لنا ذات المؤلف في ذات ناقدة لنظام القيم الذي قهره ورافضة لوضع قائم وفكر مهضوم، ومع ذلك هي ذات متأملة ولم تقو على مجاراة واقع عالمه المتناقض، المزيف، هذا الواقع الذي تتلاشى فيه عبقرية الفرد وحتى إنسانيته.

بينما "عالم الجنون" الذي دخله المؤلف ارتاح فيه وأُعجب به إذ يقول: «ولا تكن مشمئزا من ترك نفسك تزور حدائق الجنون، لتصوّرك إياها تصوّرا خاطئا نظرا لما سمعت كثيرا من الناس يقولونه عن هذا العالم العظيم » ص 08، ولعلّه

عظيم، من وجهة نظره، لأنه يحتوي على جانب من حقيقة الكون، حقيقة العالمين معا، "عالم الجنون" و"العالم الطبيعي"، والتي لا يصل إليها من لم يزر هذا العالم المثالي وقال في ذلك: «وليكن في علمك – من الآن فصاعدا – أنّ هذا العالم يحتوي على جانب من جوانب حقيقة الكون التي لم يدركها الناس إلى يومنا هذا» ص 08. ومع ذلك، يقرّ المؤلف بقرب العالمين من بعضهما ويلمّح إلى وجود الواحد ضمن الآخر بقوله: «إلا أنّني وجدتُ بعد عودتي أشياء كثيرة في هذا العالم تشبهها» ص 11، وقوله أيضًا: «وأعترف أنّي لم أستطع التفرد بهذه الميزة لاشتراك العالمين فيها» ص 12.

بالنسبة لما يتوارى اعتمدنا تأويل بعض العبارات والجمل وفق سياق الكتاب، ورأينا أن المؤلف استعمل مجموعة من الحيل (Les subterfuges de l'auteur)، صرّح ببعض منها ولم يصرّح بالبعض الآخر، وذلك لنقد واقعه وتعريته، ومنها تلك التي انطلق منها في توجيه كلامه للقارئ يصوّر فيه ظروف تأليفه للكتاب:

«ألّفت هذا الكتاب لما بدأت قواي العقلية تنهار، وقدراتي الفكرية تتراجع إلى الوراء خطوات معتبرة» ص 09، مبررا بذلك حديثه بكل حرية عمّا يريد، ويطلق العنان لفكره في لحظات غياب العقل فيُخلي مسؤوليته عمّا قد يمسّ القارئ ووضح ذلك بقوله: «واسلم أنا – عندئذ – من توبيخه لي على أخطائي، وهو لا يعلم أنّي كتبته عندما رفع عني القلم، ولذلك قلت ما شئت » ص 10. ثم يضع الناقد في موقف حرج فلا يمكن أن ينتقده، بل أكثر من ذلك قد يتعاطف معه ويسلبه بذلك الأداة للحكم عليه بعد أن استفزه (Le mettre dans la compassion et non dans le jugement) فيقول بصريح العبارة: « وعندما حاول نقدي رفع عني قلم نقده » ص 10، كما يتحايل على القارئ المبتدئ الذي يكون قد لقنه درسا إذ يصرّح: « فلا يعتقد بعد وقوعه في هذه الخديعة التاريخية أنّ كلّ ورق عليه حبر كتاب » ص 09.

لكن ليس هذا القارئ هو الذي يقلقه أكثر بل الذي يجرؤ على نقده والحكم عليه، ويتهجّم على الناقد الذي يطبق عليه معايير العالم الذي يرفضه ويمارسها عليه بحكم أنه الناطق الأول باسم هذا العالم. ومن باب التحايل دائما يصوّر لنا المؤلف علاقته بأفكار الآخرين بأن يشير إلى أصحابها دون ذكر المصادر التي اقتبسها منها، إذ يؤكد: « إذا عثرت على نادرة من نوادر أحد جهابذة اللغة والأدب، نسبتها إليّ ولم أشر إلى المصدر الذي أخذتها منه حتّى لا يسرقها أحد مني فتنطلي عليّ حيلة من حيلي » ص 12، فهنا لا يمكن أن يُتهّم بعدم الأمانة لكن بالبخل العلمي ويواصل فيقول: « وحتى يبقى الفضل لي في اكتشافها فيُنسب إليّ، ولم أسرقها من مكتشفها الأول » ص 12، فهو لا يريد أن يخون بل يرى في ذلك فضلا يُعترف له به، وفي الوقت ذاته شرف له لاحتكاكه بهؤلاء المستشهد بهم (احتكاك من نوع خاص)، وليست الأهمية بالنسبة له في محتوى ما يستشهد به وإنّما في العودة إلى جهابذة اللغة والأدب ليقتبس منهم، ليس الفكرة وإنّما الشرف والشهرة، كما يقول: « لأن ذكر اسمي بجانب اسمه شرف لي يضاهي شرف اكتشافي لها » ص 12. ويكفيه أن يكتب اسمه إلى جانب أسماء لامعة في هوامش كتاباته، ومنه كثرة الاستشهاد في عمل إبداعي كهذا، ويحقق، بشكل من الأشكال، انتصارا على العلماء وأصحاب الأفكار.

هذا جانب ممّا يصرّح به من حيل، لكن يقول بعد ذلك: « وتبقى بعض الصفات الأخرى والحيل المبثوثة في هذا الكتاب لا أذكرها بل أتركها لتكتشفها بنفسك » ص 12، وهذا إصرار على أن يتعب القارئ وألا يسهّل عليه مهمة القراءة والفهم، وهو الذي يريد أن ينتقم منه كما صرح بذلك: « وهنا أكون سعيدا أنّي أعطيته درسا قاسيا » ص 9، ثمّ قال: « وهنا أكون قد علّمت هذا الطالب وأمثاله أنّ الباحث يأخذ معلوماته من كثرة مطالعته للكتب» ص9.

هذه الحيل التي أراد أن ينتصر بها إذن، هو الغافل الجاهل، على العاقل المتكبر، إذ يقول: « ولله الحمد والمنة على غفلة الجاهل، وتكبّر العاقل على إظهار الحق » ص 10، كما يتحايل ويتطاول على العلماء، وهذا ينمّ عن ثورته عليهم وشدة الاضطهاد الذي يعانيه في عالم الفكر والعلم، فيؤكد لنا ذلك بقوله: « التطاول على العلماء ونسبتهم إلى الجهل والسهو والخطأ » ص 11.

وأكثر من ذلك حاول رفع القداسة عن هؤلاء العلماء حين تحدث عن تشومسكي وقال: « قبل مجيء المسمى نعوم تشومسكي – » ص 114. وهذه القداسة التي تحاط بها أسماء الأعلام المشهورة التي نروج لها دون اقتناع أو فهم أحيانا لأهمية ما أضافوه إلى فهم الواقع، وبذلك يثور على هذه العقلانية التي يتصف بها العلماء في العالم الطبيعي، وهي الحاجز بينه وبين عالم الجنون، ففقدان العقل أو غيابه يدخلنا في العالم الآخر، إذ قال: « فعالم الجنون لا يعترف بالعلماء ولا بحججهم، وإلا لما اختلف عنهم » ص 11، فبدأ رفض هذا العالم الطبيعي برفض معالمه وأعلامه وفضل عنه عالم الجنون الذي يدعونا لزيارته بقوله: « عليه أن يطلق لنفسه العنان أحيانا، ويسمح لها بزيارة حدائق الجنون » ص 8، وحاول ضرب هذا العالم الذي يرفضه بإحداث الفوضى في عالم الأفكار (عالم العلماء) وقلبها رأسا على عقب، وهو الذي يقول: « بعثرة الأفكار، وترك أهمها من أجل أحقرها » ص 11، ويرفض هذا العالم أيضًا في تناقضاته ونفاقه ويجسّد ذلك في الكلام الذي عنونه: « اصدقك القول فاصدقني الاستماع » ص 13، محدثا بذلك تواصلا مباشرا مع قارئه كأن ما يقوله، على صدقه وبراءته، يحتاج إلى صدق الاستماع ويمثل ذلك منطلقا لإحداث التواصل لأن حقيقة ما أراد قوله أعظم من أن يلقيه باستخفاف على من لا يبدي استعدادا لتلقيه وتقديره، وأهمية الكلام في نظر المؤلف تكمن في هذه العلاقة القائمة على الصدق، ولعلّ معظم الكلام المؤدى بين الناس يفتقد لهذا العنصر، وغيره من الكلام الذي يقلق المؤلف غموضه وضغطه على قواه

الداخلية، ومنه استعمال كلمة موقرة في قوله: « وأدخلني إلى قاعة بها لجنة عرفت أنّها موقرة دون أن أراها أو أن أتحدث مع أفرادها، ذلك أنّي ألفت وصف اللجنة بالموقرة » ص 13، والتي لم يقتنع المؤلف بأنها تعني بالفعل في هذا السياق ما تتضمنه من دلالة سامية أو أنها ليست كذلك في شيء، وفي ذلك نفاق وزيف يريد أن يتحرر منهما، ويضيف في حديثه عن هذا العالم المتناقض: « وأنّك ستطرق باب الحرية الوحيد الذي لا يمكنك طرقه إلا من هذه الجهة، ثمّ عوّد نفسك تجاهل القوانين الاجتماعية التي ألفتها منذ صغرك » ص 15، ويواصل ويقول: « وإلا لكان كل ما آمنت به حبرا على ورق، وهذا من مميزات عالمنا لا من مميزات عالم المجانين » ص 15، إلى أن يقول: « العالم الذي سأمت منه ومن أهله » ص 17.

نلاحظ فيما كتب بخط بارز ما أراد المؤلف التركيز عليه، وجاء في شكل كلمات وعبارات وجمل يضعها بين أيدينا كمفاتيح لتحديد مقاصده فيقول: « ولكن ناسا كثيرين تدخلوا فيما لا يعنيهم فنجحوا » ص 17، بمعنى الاعتراف بمن يصل إلى مبتغاه في مجال ما دون أن يكون مؤهلا للدخول والنجاح فيه ولا حتى له علاقة به، لكن يكفيه أن تقمص شخصية الناجح ببراعة، فليس المهم أن ننجح باستحقاق لكن أن نعتبر من الناجحين، وجملة أخرى يقول فيها: « أنّك انتقلت من إنسان إلى مسألة » ص 18، أي عندما يتحول الإنسان إلى موضوع يشغل فكر الناقد وفي ذلك انتصار آخر عليه، ويؤكد هذا بقوله: « وهذا نصر مبين قلّ من يعرف قيمته فضلا على أن يحققه » ص 18.

ومن العبارات التي تمّ التركيز عليها، لأهميتها كما ذكرنا عبارة « المصلحة الشخصية » ص 22، التي يعتمدها الناس في عالمنا معيارا للتصرف وتحديد علاقتهم بالآخرين، بينما عالم الجنون هو عالم مثالي، إذ يقول عنه: « بينما عالمكم لا يعرف أفراده المصالح، ولا يعملون على تحقيقها » ص 22.

لا ينطوي كلام الفرد في كل جزئياته على حقيقة الكون، فلا يجب أن نأخذ الكلام كلية، لكن بعض أجزائه (كلمات عبارات جمل) هي التي تنقل أهم شيء في حقيقة فكره ومشاعره، ومنه أنّ التركيز عليها كفيل بأن يجعلنا نهتدي إلى مقاصد المتكلم، نأخذ الكلام عادة في مجمله ونكوّن فكرة عامة، بينما حقيقته هي في بعض أجزائه أو تفاصيله، ويظهر ذلك في كلام المؤلف في بعض العبارات التي سجلها بخط بارز لتحديد مقاصده، وتنم عمّا أثّر عليه بحدّة واحتفظ به على مستوى المكبوت في شكل عناوين لبقايا تطفو أحيانا على السطح، وتعلو بقوتها وحدّتها بقية المكبوتات.

ونلاحظ أنّ كلام المؤلف، الذي جاء بخط بارز، يجاري هذا الواقع الداخلي في طبيعته المتدرجة، (كلمات، عبارات، جمل) ونتصور أن المكبوت في وجوده ليس كتلة واحدة، لكنه أجزاء تقع على مستويات هذا الفضاء الداخلي فيما يشبه عناوين تسمى بها هذه المعاناة التي ينقلها مثل كتاب "الهلوسة في اللغة والأدب".

في النهاية أرجو أن تكون هذه القراءة لبعض صفحات الكتاب قريبة ممّا أراد صاحب الكتاب أن يوصله إلينا، وألا أكون قد قوّلته ما لم يقله، وألا أكون قد أسقطت على محتوى كتابه بعض ما اعتقدت – صدقا – أنّه جوهر أفكاره وحقيقة مشاعره.

في البداية أشكر الأساتذة المتدخلين على ملاحظاتهم القيّمة المتمخضة عن اهتمامهم بالكتاب وقراءته قراءة متأنية، كما أشكر الذين عملوا على ظهور هذا الكتاب، ثم متابعته بإقامة يوم دراسي يتناوله شكلا ومضمونا[1]، وأقصد الأستاذ صالح بلعيد رئيس مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر، ولجنة القراءة التي وافقت على طبعه.

لقد كانت مداخلات الأساتذة الأفاضل مشتركة في بعض الملاحظات وبعض الأسئلة، لذلك رأيت تقسيمها إلى محاور مجيبا عن الأسئلة المتشابهة إجابة واحدة متفاديا التكرار.

I. ما تعلق بالغلاف

1. أبدى بعض الأساتذة المتدخلين إعجابهم بالصورة الموجودة على الغلاف، المتمثلة في عين ونار المحاطة بلون أسود، ورأوا أن الغلاف متسقا مع كلمة "هلوسة" المذكورة في العنوان، وإني أوافقهم الرأي، لكنني لم أتدخل في اختيار هذا الغلاف، وإنما ينسب التوفيق كله في هذا الاختيار للأستاذ صالح بلعيد.

II. أسئلة متعلقة بالعنوان

1. **مادة الهلوسة:** تساءل معظم الأساتذة المتدخلين عن مادة كلمة "الهلوسة" المذكورة في العنوان، وتتبعوا معانيها في المعاجم العربية قديمها وحديثها، ولاحظوا وجود المادة (هلس) وغياب الكلمة (هلوسة) من المعاجم العربية القديمة، وهذا صحيح وصواب. غير أنني أضيف ملاحظة أخرى وهي التشابه الكبير الموجود بين اللغة العربية واللغتين الفرنسية والانجليزية فيما يخص هذه الكلمة، فالهلوسة هي ما يعرف بـ "Hallucination" في اللغة الفرنسية، ولعل هذا من اتفاق اللغات أو

---

1 – نظم مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر اليوم الدراسي بقسم اللغة العربية وآدابها بتيزي وزو، يوم الاثنين 25 جمادى الأولى 1431هـ، الموافق لـ 10- 05- 2010م.

أن كلا من اللغة العربية واللغة اللاتينية أخذت من لغة أخرى، أو أن إحداهما أخذت عن الأخرى، والظاهر أن كلمة "هلوسة" ليست من الكلام العربي الفصيح فهي كلمة مولدة أو دخيلة، ولم يزد دوزي في تكملته على نقل ما ذُكر في محيط المحيط: «الهَلْسُ... من الكلام غير الواضح والذي لا طائل تحته، وهذه من **كلام العوام**[1]» وقد أصبحت كلمة الهلوسة مصطلحا مستعملا في علم النفس، وهو أشهر من أن يشرح.

وما يهم في هذا الصدد أن لمعنى هذه الكلمة ارتباطا وثيقا مع ما جاء في الكتاب، وإنك لتجد بعض العبارات تشير إلى ذلك كقولي: «ألفت هذا الكتاب لما بدأت قواي العقلية تنهار، وقدراتي الفكرية تتراجع إلى الوراء خطوات معتبرة[2]» وكقولي:« **ثانيا:** بعثرة الأفكار، وترك أهمها من أجل أحقرها، وذلك حتى ينساق الكتاب مع موضوعه، ويتسق مع عنوانه، ويكون بتأدية دوره جديرا[3]» وكلها تصب في معنى ذهاب العقل أو الكلام الذي لا معنى له أو الهذيان وما شابه ذلك.

2. **سبب اختياره:** كما تساءل جل المتدخلين عن سبب اختيار العبارة "الهلوسة في اللغة والأدب" عنوانا للكتاب، وكان جوابي منقسما إلى قسمين اثنين:

- **أولا:** إن الجواب عن هذا السؤال صعب لأنه متسلسل، فمهما كان عنوان الكتاب نستطيع القول: لماذا اختير هذا العنوان لهذا الكتاب، لكن هذا لا يعني أن عنوان الكتاب اعتباطي، بل هو موضوع بعلة ما، لكن يمكن تغييره بعنوان آخر يمكن أن ينوب عنه ويؤدي دوره.

-**ثانيا:** من قرأ الكتاب فإنه يلاحظ أنه مشتمل على موضوعات متعددة يصعب جمعها تحت عنوان واحد، لذلك سميتها "الهلوسة" ثم إنها مقسمة إلى قسمين

---

1 – رينهارت دوزي، تكملة المعاجم العربية، ترجمة جمال الخياط، دط. العراق: 2001، دار الرشيد للنشر، ج11، مادة (هلس).

2– عمر بورنان، الهلوسة في اللغة والأدب، ص09.

3 – نفسه، ص11.

اثنين: إما أن تكون أدبا وإما أن تكون كلاما في اللغة وعلومها، لذلك أكملت العنوان "في اللغة والأدب" فأصبح العنوان "الهلوسة في اللغة والأدب" وهذا اقتباس من "الكامل في اللغة والأدب" لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد.

3. **متى اختير العنوان؟:** اختير هذا العنوان أثناء تأليف الكتاب، ففي البداية كنت أكتب بعض الخواطر الأدبية والأفكار المتعلقة بعلوم اللغة، ولم أضع لهذه الخواطر ولا لهذه الأفكار عنوانا، ثم خطر ببالي تسميتها بـ"الهلوسة في اللغة والأدب".

4. **لو طُلب منك تغيير العنوان:** أثناء المناقشة أثار الزميل والصديق سمير لعويسات فكرة تغيير العنوان، وسألني قائلا: لو طُلب منك تغيير العنوان فهل ستغيره؟ وماذا ستضع بدلا عن العنوان الحالي؟

والجواب يكون كالتالي: ليس بالضرورة أن يكون هذا العنوان بالذات لهذا الكتاب، بل يمكن تغييره بعشرات العناوين الأخرى، فالكتاب كالمولود الجديد يمكن لوالده أن يختار له اسما من بين عدة أسماء هي في متناوله، ومهما يكن الاسم الذي اختاره فإنه لم يختره عن ضرورة ملزمة له، لكنه اختاره بعد تفكير ظنا منه أنه أَحسَنَ الاختيار؛ وكذلك المؤلف، فإنه يفكر في عدة عناوين ثم يستقر على واحد اعتقادا منه أن هذا الذي اختاره هو الأحسن، وقد اقترح علي الأستاذ عمر بن دحمان مشكورا - قبل طبع الكتاب- تغيير العنوان من "الهلوسة في اللغة والأدب" إلى "هلوستي" فلم أسترح إلى هذا الاقتراح، ولو غيّرتُ العنوان لجعلته "أفكار وخواطر" لأنه مشتمل على ما يشبه الخواطر وبعض المعلومات اللغوية والنحوية والفكرية، أو لجعلته "أسألك وأجيبك" لما احتواه من أسئلة وأجوبة، أو لجعلته "الرحلة السعيدة" لأن الكتاب يَعتبِر الجنون هو السبيل الوحيد للسعادة، ولن يصل إليه الإنسان إلا بعد شد الرحال إلى حدائق الجنون، كما يمكن اقتراح عشرات العناوين وكلها صالحة للكتاب ومعبّرة عن محتواه.

ولا يكون العنوان جيدا إلا إذا حقق شرطين اثنين: التعبير عن محتوى الكتاب، وإثارة القارئ وجعله يُقبل على الكتاب، وهذا ما أعتقده في العنوان "الهلوسة في اللغة والأدب".

III. ما يتعلق بموضوع الكتاب واللغة المستعملة فيه:

1. **محاولة عصرنة اللغة:** أشار بعض المتدخلين إلى أن لغة الكتاب لا تتماشى مع اللغة العربية المعاصرة، وأنها تحاكي لغة القدماء، ورأوا أن ذلك لا يخدم القارئ وقد يكون سببا في عدم إقباله عليه، فالكتابة بطريقة القدامى – حسب رأيهم- غير ناجعة.

وأجيب عن هذه الأقوال قائلا: لا أنكر أنني أحب الكتابة بأسلوب القدامى، وأعترف أني لا أتقن ذلك، لكنني أشعر بالراحة عندما أكتب بذلك الأسلوب، ولا أظن أن ذلك سيجعل أسلوب الكتاب غامضا، لأنني لم أستعمل الألفاظ الغريبة النادرة.

2. **ما هي الفئة التي وجهت إليها الكتاب؟:** أما الأستاذة فتيحة حداد فقد تساءلت عن الفئة التي وُجّه إليها الكتاب، وذلك لتعرف إن كان بإمكان القارئ فهمه.

فأقول: إن الكتاب موجه للقراء المتعبين من الكتب العلمية التي تحتاج إلى تركيز وجهد وحفظ ودراسة، كالكتب النحوية واللسانية والفلسفية وغيرها، فهم يحتاجون إلى راحة، وراحة المدمن على المطالعة لا تكون في التوقف عن المطالعة، ولكن تكون بمطالعة كتاب يُروّح عن النفس بأسلوب هزلي، ولا يطالعه القارئ ليحفظ متن علم ولا ليفهم مبادئه، وقد أشرت إلى ذلك في الكتاب بقولي:«... ثم أكتب للناس شيئا- إذ الكتابة في بعض أشكالها حديقة من حدائق الجنون- فيتسنى لهم السماح لأنفسهم **المتعبة** من مشاق **البحث** والتنقيب بزيارة حديقة من هذه الحدائق الرائعة، وأضع لهم كتابا يقرأونه أثناء زيارتهم **يعوضهم** عن كتب الفلسفة واللغة والأدب» وأتمنى أني استطعت افتكاك ابتسامة من القارئ أثناء مطالعته الكتاب.

IV. متفرقات:

1. **التعليق على قول سيبويه وقول الجاحظ:** كنت قد استنتجت من قول سيبويه: «...إذا قلت: عبد الله منطلق، تبتدئ بالأعرف ثم تذكر الخبر... فإذا قلت: كان زيد، فقد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك فإنما ينتظر الخبر فإذا قلت: حليما فقد أعلمته مثل ما علمت... وتقول: أسفيها كان زيد أم حليما؟ وأرجلا كان زيد أم صبيا؟ تجعلها لزيد، لأنه إنما ينبغي لك أن تسأله عن خبر من هو معروف عنده، كما حدثته عن خبر من هو معروف عندك. فالمعروف هو المبدوء به[1]» أن المستمع هو الذي يصنع دورة الخطاب، وبعدها بصفحات ذكرت قول الجاحظ: «لأن مدار الأمر على البيان والتبين، وعلى الإفهام والتفهم. وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمُفْهِمُ لك والمُتَفَهِّمُ عنك شريكان في الفضل، إلا أن المُفْهِم **أفضل** من المُتَفَهِّم، وكذلك المعلم والمتعلم. هكذا ظاهر هذه القضية، وجمهور هذه الحكومة، إلا في الخاص الذي لا يذكر والقليل الذي لا يشهر[2]» فظنت أستاذة من الأساتذة المتدخلين أن قول الجاحظ: «المُفْهِم **أفضل** من المُتَفَهِّم» يعني أنه هو الذي صنع دورة الخطاب ففُضّل لذلك.

ولما كنت أسجل الأسئلة بسرعة، وتعذر علي ترتيبها، لم أجب عن هذا السؤال المهم سهوا، والحمد لله، فلقد أتيحت لي فرصة ثانية للإجابة فأقول: إن قول سيبويه يشير إلى أن المستمع والمتكلم يشتركان في معرفة معلومة ما، غير أن المتكلم يعلم معلومة متعلقة بالمعلومة المعروفة لديهما، والمستمع لا يعلمها، وعليه فإن المتكلم مجبر على ابتداء كلامه بالمعلومة التي يعرفها المستمع، ثم يتبعها بالمعلومة

1- أبو بشر عمرو بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1. بيروت: دس، دار الجيل، ج1، ص47، 48 .

2 - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دط. بيروت: دس، دار الجيل، ج1، ص11، 12.

التي يجهلها، ولا يمكن له الابتداء بالمجهول لدى المستمع، غير أن الأمر قد ينعكس فيكون المستمع هو الذي يعرف المعلومتين، والمتكلم لا يعرف إلا واحدة منهما فقط، وهنا يستفهم المتكلم عن تلك المعلومة التي يجهلها، وهنا يبدأ كذلك بما يعرفه المستمع ولا يعرفه المتكلم، وإليك الأمثلة التالية:

-زيد منطلق (تستعمل هذه الجملة في حالة معرفة المستمع لزيد وجهله للانطلاق)

-المنطلق زيد (تستعمل هذه الجملة في حالة معرفة المستمع بأن هناك انطلاقا ولا يعرف اسمه).

-أزيد منطلق؟ (تستعمل هذه الجملة في حالة جهل المتكلم اسم المنطلق وعلمه بأن هناك انطلاقا، مع احتمال معرفة المستمع بالأمرين).

-أمنطلق زيد؟ (تستعمل هذه الجملة في حالة جهل المتكلم للفعل الذي قام به زيد، مع معرفته لزيد، واحتمال معرفة المستمع للأمرين).

لذلك قال سيبويه: «فالمعروف هو المبدوء به»، وقد اعتمد عبد القاهر الجرجاني هذا المبدأ في كتابه دلائل الإعجاز فراجعه. أما قول الجاحظ: « المُفْهِم **أفضل** من المُتَفَهِّم» فإنه يقصد -والله أعلم- أن المستمع لا ينتج، والمتكلم هو الذي ينتج الكلام لذلك كان له الفضل، وحتى يتضح المقال لا بأس أن أوضحه بمثال، فالمستمع كالمريض، والمتكلم كالطبيب، فالذي يؤثر في قائمة الأدوية الموصوفة هو المريض وليس الطبيب، والدليل على ذلك هو أنه إذا تغير المريض ولم يتغير الطبيب تغيرت الوصفة، لكن الفضل في حسن اختيار الأدوية يعود إلى الطبيب وليس إلى المريض فتأمل.

2. كما رأت الأستاذة نفسها أن الهلوسة تبدأ من العنوان "أصدقك القول فاصدقني الاستماع" الموجود في الصفحة 13 في حين أني وضعت العنوان "بداية الهلوسة" في الصفحة 41. والحقيقة أن الهلوسة تبدأ بعد دخول حدائق الجنون، وكل ما قيل قبل الصفحة 41 فهو عبارة عن تحقيق بعض الشروط لدخول تلك الحدائق، فلا أوافق الأستاذة الرأي.

3. وبعد أن تدخل الأساتذة الأفاضل، وأثروا اليوم الدراسي بملاحظاتهم وأسئلتهم، فُتح المجال للحاضرين، ليسألوا ويستفسروا، ومن الأسئلة التي شدت انتباهي قول أحد الطلبة: **هل الكاتب منعزل ويريد العودة إلى الماضي؟**

والجواب عن هذا السؤال يكون كالآتي: لا يكون الرجوع إلى الماضي تخلفا في كل الأحوال، بل يكون الماضي أحسن من الحاضر في بعض الجوانب، كما أننا لا نستطيع إلغاء كل ما هو ماض، والانطلاق من العدم، ولا يمكننا الالتزام بالماضي بكل تفاصيله، وإلغاء كل ما هو جديد وحديث، والصواب في هذه المسألة يتضح بأمرين:

-**الأمر الأول:** لا يمكن استعمال معيار (الجِدة/ القِدم) للحكم لشيء أنه جيد، ولا على شيء أنه سيئ، وإنما علينا أن نستعمل العقل، فإن كان القديم أحسن من الجديد أخذنا القديم وتركنا الجديد، وإن كان العكس أخذنا الجديد وهجرنا القديم هجرنا أكيدا.

-**والأمر الثاني:** أن ثمة أصولا لا يمكن الاستغناء عنها، وأمر المفاضلة بين الجديد والقديم لا يكون إلا في الفروع.

ثم إن الحضارة لا تقوم إلا على أسس حضارة سابقة عنها، ولا يمكن بناء حضارة انطلاقا من فراغ، وإن أمكن ذلك كان تضييعا للوقت والجهد والمال، وقد أشرت إلى ذلك في "الهلوسة في اللغة والأدب" وذلك في قولي:«إذ **يقلد** الحفيد أجداده في **صوابهم**، **ويجتنب أخطاءهم**، وإلا لكان كل جيل يعيد تجارب الأجيال السابقة، ويدفع أثمانا دفعها ناس قبلهم، لعدم علمهم بما مر به سلفهم[1]».

أتمنى أني وفقت في الإجابة عن الأسئلة، وأكرر الشكر لكل من ساعدني على إخراج هذا الكتاب وكل من دلني على نقص فيه واكتفى بذلك، أو تفضل علي بأن أرشدني إلى طريقة تفاديه، وذلك حين كان أوراقا مشتتة، وصفحات مبعثرة، أو بعد ما أصبح كتابا بين أيدي القراء.

---

1 – عمر بورنان، الهلوسة في اللغة والأدب، ص07.